

فهم القرآن

بين

القواعد الضابطة والمزالق المملكة

بحث مقدم إلى حوعية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين في
القاهرة - العدد الخامس والعشرون 1428هـ / 2007م

دكتور

رمضان خميس زكي الغريب

عضو هيئة التدريس في جامعة الأزهر وأستاذ الدراسات القرآنية المساعد في
كلية المعلمين - حائل، المملكة العربية السعودية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وآله وصحبه ومن والاه، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد
اللهم إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقواتنا، ونلوذ بحولك وطولك وقوتك؛ فلا تكلنا إلى
أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها يا أرحم الراحمين، اللهم إنا نسألك يا حنان يا منان يا
بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تجعل أقوالنا، وأفعالنا، وحركاتنا،
وسكناتنا، فيك لك خالصة؛ إنك على كل شيء قدير أما بعد :

-1-

فإن كتاباً من الكتب السماوية أو الأرضية لم يلق من العناية والاهتمام مثملاً
لقي القرآن الكريم، فقد تفرد هذا الكتاب الكريم بعناية أهله به، عناية فاقت الحصر،
وزادت عن حد الكفاية والحاجة بمراحل طوال، وآماد بعاد، فقد عدوا سوره وآياته،
وكلماته وحروفه، وسجدياته، وتواتر ذلك جيلاً بعد جيل، وقبيلاً بعد قبيل، من لدن
قبل ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان إلى نزوله على قلب المصطفى
الآن، إلى أن تقوم الساعة.

وما ذلك إلا جزء من أجزاء وعد الله تعالى بحفظه بقوله: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ
وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" [الحجر: 9]، حتى بلغ حد العناية أن يقول الجيل الرائد: «سلوني

من هنا أعطاهم القرآن الكريم عزاً حقيقياً، وسؤدداً صادقاً، فقادوا العباد، وفتحوا وأرضاه: (لقد كنا أذلة فأعزنا الله بالبلاد، بأمر الله رب العالمين، حتى قال الفاروق بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله)⁽¹⁾، وصدق ربي بن عامر بحاله ومقاله هذا الأمر، فعلم رستم ذلك بقوله: (إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)⁽²⁾، وما ذلك إلا لانطلاقهم من هذا المصدر الأصيل، الذي هو أول مصادر التشريع الإسلامي الحنيف، ولم يكن أصحاب النبي يقصرون هذا المصدر على جانب التشريع، وناحية الفقه بمعناه المحدود الذي انحصرت فيه الأمة بعد ذلك أجيالاً متعاقبة، وأحقاباً متطاوله، بل كان الفهم القرآني وأرضاه: لديهم يغزو كل جنبات الدين، وأركان الحياة، حتى قال عبد الله بن عباس «لو ضاع مني عقل بعيري لطلبته في القرآن الكريم فإن الله تعالى يقول: ما فرطنا في الكتاب من شيء»⁽³⁾.

وأصبح الصحابة- رضوان الله تعالى عنهم أجمعين- في فترة محدودة، ومدة معدودة من الزمن ينشرون الضياء، ويهدون الناس إلى الله سبحانه وتعالى.

-4-

- - المستدرك: ج 1 ص 130، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين لاحتجاجهما بأيوب بن عائذ الطائي¹ وسائر رواته ولم يخرجاه

- انظر تاريخ الأمم والملوك، 2/ 401، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط² أولى 14-7 هـ .

- المقولة لابن عباس، انظر روح المعني، 7/ 144، للألوسي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.³

حتى أتى على المسلمين حين من الدهر تبدلت لديهم المفاهيم، وتغيرت المعاني والمعايير، فأصبحت نظرهم إلى القرآن الكريم نظرة جامدة هامة، لا تبني جيلاً، ولا تنشئ حضارة، ولا تؤسس في النفوس الوثبة إلى الإمام، تلك الوثبة التي عاشها السابقون، وبنى عليها اللاحقون، فحققوا في فترات محدودة من الانتشار والهدى والعلم ما يعد معجزة حقيقية في مقياس المنصفين بشهادة أعدائهم قبل أصدقائهم

وشمائل شهد العداة بفضلها والفضل ما شهدت بها الأعداء⁽¹⁾.

-5-

أعداؤنا والقرآن

لقد فهم أعداؤنا مكن السر، وعماد القوة لدى المسلمين، فسخروا جيوشاً جرارة، وجحافل متكاثرة، لتحول بين المسلمين وهذا الضياء الذي أحالهم من موات حقيق، وسبات عميق، إلى أصحاب نهضة، ورواد حضارة، تجمع بين المادة والقيمة، وتعيد للناس النظرة الصحيحة بين مقولات الدين ومتطلبات الحياة، وليس بعيداً عن أذهاننا كلمات هذا المستشرق الذي ذكر فيها أن المسلمين لن يتفرقوا ما دام فيهم القرآن والكعبة والأزهر» ويقوم غر صغير ليمزق المصحف في هذا المؤتمر فيؤكد له أن الغاية تمزيقه في صدور المسلمين لا من الورق والقرطاس).

- قرى الضيف، لعبد الله بن عمر بن سفيان بن أبي الدنيا، ط أضواء السلف، الرياض، ط أولى 1997م، ت/ 1
عبد الله بن حمد المنصور، ج2 ص 192.

وتتابعت جهودهم سياتاً لا ينقطع، وزحفاً لا يتوقف في صور متعددة، وألوان متباينة يظهر بعضها حيناً، ويخفي كثير منها حيناً، ويسخر بعض المسلمين للقيام بالتنفيذ الثالثة الأخرى.

-6-

خطتهم في هذا الجانب

من هنا حرص أعداؤنا على أن يصرفوا نظرنا عن القرآن، وفهمه، والحياة معه، حياة فاعلة منتجة، تثمر وتورق وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وساعدهم على ذلك قبول المسلمين، أو كثير من المسلمين، فنجحوا في صرف اهتمامهم بالقرآن من المضمون إلى الشكل، ومن الفهم والتوظيف إلى العناية بتجويده وقراءته، ومن إقامة حدوده إلى إحسان حروفه فحسب، من هنا وجب على المسلمين أن يعيدوا النظر في علاقتهم بالقرآن؛ لينتقلوا مما هم فيه إلى الحال التي أرادها لهم الله - تعالى - ؛لذا كان هذا الجهد البسيط، والعمل المتواضع؛ إطلالة على أسس الفهم، وقواعد الضبط العقلي التي تعين على حسن الإدراك، وحسن التوظيف على قدر الطاقة البشرية، وتحذيراً من المزالق المهلكة التي يضيع معها الجهد، وتبعثر الطاقة، وسعياً إلى نقل المعرفة من دائرة الفكر والعقل إلى ميدان التطبيق الواعي، والتوظيف السليم .

هذا وقد قسمت هذه الدراسة بعد المقدمة إلى أربعة مباحث وخاتمة، المبحث الأول: في أن الفهم القرآني فريضة قرآنية، وضرورة حياتية، وفيه تحدثت عن أهمية فهم القرآن، ووجوبه، والمبحث الثاني: في قواعد فهم القرآن، وانتخبت منها عدداً من القواعد التي تضبط فهم الإنسان للقرآن، وتجعله أقدر على التعامل معه، تعاملًا

صحيحًا؛ لأن السلوك فرع التصور، وإذا صح الإدراك كان خطوة على طريق التنفيذ والتعامل، وكانت هذه القواعد حول أسباب النزول، وبيئة النزول، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والوقف والابتداء، ومعرفة أخبار العرب وعاداتهم، وعلم أحوال البشر، ومعرفة معهود الخطاب القرآني، وقواعد اللغة العربية، ومعرفة موضوع القرآن ومقاصده الأساسية.

وجاء المبحث الثالث حول العقبات التي تقف في طريق الفهم الإنساني للقرآن الكريم، تلك التي تحول بينه وبين الإدراك الواعي، والحكم السليم والإفادة الحقيقية من معين القرآن الكريم، ومن تلك العقبات: الميل إلى نزعة أو مذهب، والنظرة الجزئية للقرآن الكريم، والوقوف عند حسن التلاوة وجمال الصوت، أو وضع النصوص في غير مواضعها، أو أن يكون هم الإنسان الكم لا الكيف، وأن يكون غرضه آخر السورة، دون الوقوف عند مفادها، أو أن يكون المرء صاحب قلب مريض لا يعينه على الانتفاع، أو أن يكون لديه تورع واهم، أو تدين مغلوط، وفهم مغشوش، ومثل الوقوف عند الأبنية الفكرية السابقة دون البناء عليها، أو أن يشغل نفسه بالمبهمات، أو يهمل قواعد التفسير.

وجاء المبحث الرابع في معينات الفهم، وكان من أبرز ما تناوله: المعاشية للقرآن الكريم، وحضور القلب، والمدارسة، وصدق الطلب، وسلامة القراءة والترسل فيها والترتيب بين أجزائها، واستظهار القرآن، وإدامة النظر فيه، وصلاة الليل، والتحلي بأخلاق القرآن: قولاً وعملاً، إلى غير ذلك من المعينات التي تجب على طالب الفهم القرآني أن يضعها في حسابه، حتى يصل إلى مراده، ثم كانت الخاتمة، وفهرس المراجع والمصادر، ثم فهرس الموضوعات؛ سائلاً الله - عز وجل - أن يقبل جهدي، ويغفر زللي، ويتجاوز عن سيئاتي.

والله وحده خير مسئول ومأمول,,,,,

حائل -المملكة العربية السعودية 12 من شهر شعبان 1427 هـ 2006/9/5

م

رمضان

المبحث الأول

الفهم القرآني فريضة قرآنية وضرورة حياتية

قضية فهم القرآن، ووقوف الإنسان على توجيهاته وإرشاداته، وعبره ومثلاته، وقضاياها في الحياة، ليست أمراً فرعياً يحصله من يشاء، ويهمله من أراد، وليست قضية ثانوية، على هامش الحياة، تحصل في أي وقت أو لا تحصل؛ إنما هي بحق فريضة قرآنية، وضرورة حياتية؛ فهي فريضة قرآنية لهذه الآيات التي تعددت، وألحت

في التأكيد على أهمية فهم القرآن "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"⁽¹⁾، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا"⁽²⁾، وغير ذلك من الآيات الكريمة، التي تحتاج إلى دراسة مفردة، وهي ضرورة حياتية؛ لأن صلاح الإنسان في معاشه ومعاده رهن بفهمه لهذا الدستور الخالد، والمنهاج القويم؛ ذلك أن الله - تعالى - خلق الإنسان، ووضع له نظاما يضمن له العز في الدنيا، والسعادة في الآخرة، هذا النظام هو القرآن الكريم، بأوامره، ونواهيه، وإرشاداته، وتوجيهاته، فإن استطاع الإنسان أن يفهم القرآن الفهم الصحيح عز في الدنيا، وأمرها، وارتفق خيرها، وبني حضارتها، وصار - بحق خليفة الله في أرضه، وأهلا لهذا التكليف، ومحلا لهذا التشريف، الذي فضله الله - تعالى - به على سائر الخلق، وإن أخفق - ولا أخفق - في تفهم هذا النظام، الذي هو موضوع لصلاحه وإصلاحه، كان كمن انطفأ النور أمام ناظره، فأصبح في دياجير الظلام، وإن كان ذا بصر شديد، أو رأي رشيد، أو عقل سديد، فلن يصل إلى مبتغاه، ولن يهتدي لهداه، وكان كمن قال: سأوي إلى جبل يعصمني من الماء، فنودي لا عاصم اليوم من أمر الله، وأصبح في عداد المغرقيين؛ لأن الضوء الكاشف خلاه، والهادي البصير ودعه وقلاه، وصار مثله "كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون أو كصيب فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب

محمد: 1.24

الفرقان: 2.73

بسمهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ⁽¹⁾؛ لذلك دلهم الله على منهاج الخلاص في الآية التالية بقوله تعالى: " ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون" ⁽²⁾, ولعلك تلمح معي التعبير القرآني واستخدامه لفظ الربوبية, بما تحمله هذه الكلمة من رعاية, وعناية, وحياطة, وأمان.

صلاح الحياة بصلاح النفوس وصلاح النفوس بتفهمها للقرآن

لا ينكر أحد أن محور الحياة وقب ميزانها هو الإنسان, الذي خلق الله - تعالى - من أجله كل شيء, سخر له ما في السماوات وما في الأرض, وسخر له الأنهار بما فيها, وخلق له الحياة وما عليها؛ كي يكون - بحق - خليفته في أرضه, يقيم عليها شرعه, وينشئ فيها حضارة باسم ربه, فإذا صلح الإنسان صلح معه كل شيء في الحياة, ولا يصلح الإنسان هكذا ضربة لازب, أو خبط عشواء, وإنما يصلح بصلاح فهمه للقرآن الكريم, هذا الفهم الذي يختصر على الإنسان الأزمان, ويطوي له المسافات, ويوفر عليه الأيام والأوقات, ولنا في العرب قبل الإسلام وبعده عبرة, فلا يخفي ما كانوا عليه قبلا, وما صاروا إليه بعدا, حين دبّت فيهم روح القرآن, لقد (صلحت أنفس العرب بالقرآن, إذ كانوا يتلونهم حق تلاوته, في صلواتهم المفروضة, وفي تهجدهم, وسائر أوقاتهم, فرفع أنفسهم, وطهرها من خرافات الوثنية المذلة للنفوس المستعبدة لها, وهذب أخلاقها, وأعلى هممها, وأرشدّها إلى تسخير هذا الكون كله لها, فطلبت ذلك, فأرشدّها طلبه إلى العلم بسننه - تعالى - فيه من أسباب القوة والضعف, والغنى والفقر, والعز والذل, فهداها ذلك إلى العلوم, والفنون, والصناعات, فأحيت مواتها, وأبدعت فيها ما لم يسبقه إليه غيرها, حتى قال صاحب كتاب تطور

- البقرة: 17- 20. ⁽¹⁾

(البقرة: 21. ²

الأمم من حكماء الغرب: (إن الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال: جيل التقليد، وجيل الخضرمة، وجيل الاستقلال، وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد) (1) . إن ذلك وإن كان مخالفا لما عهده الناس من تطور وتدرج، إلا أنه ماض على النمط الطبيعي الذي يلتقي فيه الوحي الذي هو من روح الله تعالى، مع الإنسان الذي هو من نفخته: " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور" (2) , وكذلك " فإذا سويته ونفخت فيه من روحي " (3), فإذا التقت النفختان حدثت المعجزات لقد أخرج القرآن العرب- عندما فهموه من طور البداوة الموعلة، إلى نسمات الحضارة الباهرة فأصبحوا- وهم بالأمس رعاة إبل وغنم - قادة الدنيا ورواد الأمم، ليس ذلك لخصائص في أنفسهم فحسب إنما أيضا لهذه الروح التي سكبت في أنفسهم أثر امتزاجها بالقرآن، (كان المسلم العربي يتولى حكم بلد، أو ولاية، وهو لا علم له بشيء من فنون الدولة، ولا من قوانين الحكومة، ولم يمارس من أساليب السياسة، ولا طرق الإدارة، وإنما كل ما عنده من العلم بعض سور من القرآن، فيصلح من تلك الولاية فسادها، ويحفظ أنفسها، وأموالها، وأعراضها، ولا يستأثر بشيء من حقوقها، هذا وهو في حال حرب وسياسة وفتح مضطر لمراعاة تأمين المواصلات مع جيوش أمته وحكومتها، وسد الذرائع لانتقاص أهلها، وإذا صلحت النفس البشرية أصلحت كل شيء تأخذ به، وتتولى أمره، فالإنسان سيد هذه الأرض، وصلاحها وفسادها منوط

المنار: 7/1 (1)

الشورى: 52-53. 2

الحجر: 29. 3

بصلاحه وفساده، وليست الثروة ووسائلها من صناعة، وزراعة، وتجارة هي المعيار لصلاح البشر، ولا الملك ووسائله من القوة والسياسة؛ فإن البشر قد أوجدوا كل وسائل الملك والحضارة، من علوم وفنون وأعمال، بعد أن لم تكن؛ فهي إذاً نابعة من معين الاستعداد الإنساني، تابعة له، دون عكس، ودليل ذلك في العكس كدليله في الطرد؛ فإننا نحن المسلمين وكثيراً من الشعوب التي ورثت الملك والحضارة عن سلف أوجدهما من العدم ممن أضاعوهما بعد وجودهما بفساد أنفسهم⁽¹⁾

المنار 7/1. ¹

المبحث الثاني: قواعد الفهم.

إن الواقع المعيش الذي يعانيه المسلمون يصرخ فيهم: أن يعودوا إلى سبب العز والمجد الذي عاشه السابقون، وسادوا به البلاد، وهدوا العباد إلى طريق الهدى والرشاد، بأمر الله عز وجل، لقد كان لذلك سبب ظاهر ظهوراً عرفه الصحابة بعد أن عاشوه، بل عايشوه حقيقة واقعة، وأمرأ ملموساً في حياة الناس، وهو قريبهم من فهم هذا الدستور الرباني الخالد، إن أوامر القرآن تتوالي على أسماع المسلمين، تأمرهم بالتدبر والتفكر والنظر والاعتبار وتتواتر على أذهانهم، تدعوهم وغيرهم للنظر في مضامين القرآن الكريم، وارتفاق خيره، والانتفاع بتوجيهه، وإرشاده، وحتى يصل المسلمون إلى فهم سليم للقرآن الكريم، وإدراك عاقل لمراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية هناك عدد من القواعد التي إن رعوها حق رعايتها وساروا على هديها وصلوا إلى بر الفهم السليم ومرفأ الإدراك الآمن لمحتوي القرآن الكريم وهذه القواعد نذكر منها ما يلي:

القاعدة الأولى

معرفة أسباب النزول

لا شك أن معرفة سبب نزول الآية باب عظيم من أبواب فهمها، وطريق قوي من طرق التوصل إلى إدراك مراد الله تعالى فيها - بقدر الطاقة البشرية، والأسباب: جمع سبب، والسبب: ما يتوصل به إلى غيره؛ لذلك سمي الحبل سبباً في قوله تعالى: "مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ" [الحج: 15]، والنزول ورد في اللغة بمعنى: الانحدار من أعلى إلى أسفل، وبمعنى: الانتقال من مكان إلى آخر، ومن الأول قوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" ⁽¹⁾ وقوله تعالى: "إِنَّا : "رَبَّنَا أَنْزِلْ لَنَا الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ الْقَدَرِ" ⁽²⁾ ، وقوله تعالى على لسان نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : "وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُرْسَلِينَ" ⁽³⁾ ومن الثاني في قوله تعالى: "وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ" ⁽⁴⁾.

(1) الحجر: 9.

(2) القدر: 1.

(3) المائدة: 114.

(4) المؤمنون: 29.

والمراد بسبب النزول: ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه وقت نزوله أو مبينة لحكمه أيام وقوعه، كأن يكون ذلك حادثة وقعت، أو سؤالاً وجه إلى النبي، فنزل الوحي لبيان ما يتصل بهذه الحادثة، أو بجواب هذا السؤال⁽¹⁾، وذلك مثل حادثة «خولة بنت ثعلبة» التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فنزل بسببها آيات الظهار في سورة المجادلة⁽²⁾،

والقارئ أو الباحث الذي يدرك سبب نزول الآية التي يقرأها تكون لديه القدرة على الفهم الصائب، والإدراك الواعي لمراد القرآن الكريم، فلا يفسر آية بغير وجهها، ولا يضع كلمة في غير بابها، من هنا عنيت كتب علوم القرآن بتأكيد هذه الناحية من نواحي فهم القرآن، واعتبارها قاعدة أصيلة من قواعد الفهم القرآني. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (ومعرفة سبب النزول يعين على فهمه؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وآثارها)⁽³⁾.

من هنا اعتنى العلماء بمعرفة سبب النزول، وأفردوه بدراسات خاصة، فألف فيه على بن المديني شيخ الإمام البخاري، والواحدي، النيسابوري، وابن الجوزي والجعبري، وابن حجر، والسيوطي، وغير هؤلاء ممن يطول المقام بذكرهم، كما اعتنى

(5) - انظر مناهل العرفان في علوم القرآن، 1/ 106، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، ط: دار إحياء الكتب العربية، بدون.

- انظر لباب النقول في أسباب النزول، 746، للإمام السيوطي، بهامش تفسير الجلالين، ط: دار المعرفة،² بيروت، لبنان.

(3) مقدمة أصول التفسير ص 81 بتحقيق إبراهيم بن محمد، ط: دار المؤيد، ط. أولى 1423 هـ 2002م.

به المفسرون في مقدمات تفاسيرهم التي تعد بذوراً لكثير من قواعد الفهم القرآني وأصول التفسير.

ولذلك خطأ الإمام الزركشي من زعم أن أسباب النزول تدخل في باب التاريخ، فقال في برهانه: «أخطأ من زعم أنه- أي علم أسباب النزول أنه لا طائل تحته لجريانه مجري التاريخ، وليس كذلك، بل له فوائد منها: بيان وجه الحكمة الباعثة على التشريع، ومنها تخصيص الحكم عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ومنها الوقوف على المعنى قال الشيخ أبو الفتح القشيري- وهو ابن دقيق العيد:- «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا ومنها أنه قد يكون اللفظ عاماً ويقوم الدليل على التخصيص؛ فإن محل السبب لا يجوز إخراجه بالاجتهاد بالإجماع، ومنها رفع توهم الحصر، ومنها إزالة الإشكال»⁽¹⁾. فمعرفة سبب نزول الآية يعين على فهم المراد منها، ويعين على دفع الإشكال، حتى قال الإمام الواحدي، «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها».⁽²⁾

كما إن إدراك السبب يعين على الحفظ، ويثبت الوحي في ذهن من سمع الآية؛ وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة، كل ذلك من دواعي تقرر الأشياء، وانتقاشها في الذهن، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر، وذلك هو قانون تداعي المعاني المقرر

(1) انظر البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي، دار صد 116 وما بعدها بتصرف، ط دار المعرفة، بيروت لبنان، ط أولى 1410هـ/ 1990م، ت د. يوسف المرعشلي وآخرين..

(2) انظر أسباب النزول، للواحدي، .

في علم النفس ⁽¹⁾ ويمكن أن تدرك قيمة سبب النزول وأثر معرفته في فهم الآية من وأرضاه يفهم قوله تعالى: (إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ نصوص متعددة، فعروة بن الزبير من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكراً عليم) ⁽²⁾ [البقرة: 158] يفهم من الآية الكريمة أن لا إثم على من ترك السعي بين الصفا والمروة لأن الآية الكريمة تقول "فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا" ونفي الجناح لا يدل على الفرضية، حتى صوبت له خالته السيدة عائشة في فهم بتذكيره بسبب النزول، وهو أنه كان على الصفا صنم يقال له (إساف)، وعلى المروة صنم يقال له (نائلة)، وكان المشركون إذا سعوا تمسحوا بهما، فلما ظهر الإسلام وكسرت الأصنام تخرج المسلمون أن يطوفوا بهما لذلك، ولأن الله تعالى لم يذكر السعي بين الصفا والمروة في القرآن كما ذكر الطواف ⁽³⁾. وكما أشكل على مروان بن الحكم فهمه قوله تعالى: "لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" ⁽⁴⁾ حتى بعث إلى ابن عباس يقول: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذب أجمعون، فقال ابن عباس: إن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه

(1) انظر مناهل العرفان ط ص 113، 114، وانظر المدخل لدراسة القرآن الكريم ص 125 للأستاذ محمد أبي شهبه وانظر دراسات في علوم القرآن ص 198 ط: دار المنار لأستاذنا المرحوم د. محمد بكر إسماعيل طيب الله ثراه.

(2) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم ص 126. بتصرف.

- انظر صحيح البخاري، 2/ 635، وانظر سبب نزول الآية في العجائب في بيان الأسباب ج 1 ص 406، ³

للإمام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر و ط دار ابن الجوزي ، الدمام، ط أولى 1997م، ت / محمد عبد الحكيم الأنيس.

(4) آل عمران 188 .

واستحمدوا بذلك إليه⁽¹⁾، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى،

وخلاصة القول: أن إدراك سبب النزول يعين على فهم الآية فهماً صحيحاً،
ويزيل من ذهن اللبس والإشكال. بل يعين على الحفظ والاستذكار.

القاعدة الثانية: معرفة بيئة النزول

وأقصد ببيئة النزول أولاً البيئة المكانية فغير خاف على مسلم أن القرآن نزل
على مرحلتين المرحلة: الأولى في مكة، والمرحلة الثانية في المدينة، ولكل نزول بيئته
الخاصة به، وملابساته وأحواله التي إن أدركها قارئ القرآن الكريم وسامعه، ووضعها
المفسر في حسبه وذنه قصر عليه مسافات كثيرة، في الفهم والإدراك؛ من هنا
عني علماءنا وسلفنا الصالح بإفراد ذلك في دراسات متعددة تحت باب: المكي
والمديني في القرآن الكريم، فألفوا فيه ضمن كتابتهم عن علوم القرآن، فلا يكاد يخلو
كتاب من كتب علوم القرآن من الحديث عن المكي والمديني، وانظر في ذلك البرهان
للزركشي، والإتقان للسيوطي، ومناهل العرفان للزرقاني، والمدخل لدراسة القرآن الكريم
لأبي شهبه، ومباحث في علوم القرآن للشيخ صبحي الصالح، والشيخ مناع القطان،

(1) انظر في سبب النزول: مسلم ج 4 ص 2143، 110 وانظر أسباب النزول للإمام الواحدي ص 24 و 25 و ص 78، ط دار
الكتب العلمية، ط أولى 1402 هـ 1982 م، المدخل لدراسة القرآن الكريم ص 129.

ودراسات في علوم القرآن للدكتور محمد بكر إسماعيل، وغير ذلك من الكتب التي عنيت بذكر هذا المبحث من مباحث علوم القرآن.

والمكي كما ورد في تعريف العلماء: هو ما نزل قبل الهجرة، والمدني هو ما نزل بعد الهجرة، وهذا هو المختار من التعريفات المتعددة⁽¹⁾، ولا شك أن إدراك البيئة المكانية لنزول الآية الكريمة يعين على فهمها، وإدراك مراميها؛ لذلك قال شيوخنا: «معرفة المكي والمدني من المباحث المهمة التي يحتاج لها المفسر لكتاب الله- تعالى-، ممن نصب نفسه للاجتهد والفتيا والقضاء؛ كي يمكنهم التوصل إلى الحق والصواب؛ ولذلك قال أبو القاسم النيسابوري في كتابه التنبيه على فضل علوم القرآن: «من أشرف علوم القرآن علم نزوله، وجهاته وترتيب ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل في المدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي»⁽²⁾، ولهذه القاعدة فوائد متعددة منها: التمييز بين الناسخ والمنسوخ، ومعرفة تاريخ التشريع، ومنها الثقة بهذا القرآن، ووصوله إلينا سالما من التغيير والتزيف، ومعرفة الخصائص البلاغية للقرآن الكريم المكي والمدني، ولا يخفي على إنسان منزلة معرفة المكي والمدني من القرآن والوصول إلى مراميه.

- انظر الإتيان: ج 1 ص 34.¹

(2) انظر الإتيان: ج 1، ص: 34، المدخل لدراسة القرآن الكريم ص 197.

القاعدة الثالثة

معرفة الناسخ والمنسوخ

معرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم من أسس فهم القرآن وإدراك معانيه؛ ولذا عني به السابقون، وصنفوا فيه، يذكر الإمام الزركشي ذلك في برهانه فيقول: والعلم به عظيم الشأن، وقد صنف فيه جماعة كثيرون، منهم قتادة بن دعامه السدوسي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو داود السجستاني، وأبو جعفر النحاس، وهبة الدين بن سلام الضرير، وابن العربي، وابن الجوزي، وابن الأنباري، وغيرهم... وقد قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كلام الله إلا بعد أن يعرف فيه الناسخ والمنسوخ، وقد قال علي بن أبي طالب لقاص: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا

أعلم، قال: هلك وأهلك⁽¹⁾، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم في فهم الإسلام وفي الاهتداء إلى صحيح الأحكام، خصوصاً إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يندفع التناقض فيها إلا بمعرفة سابقها ولاحقها، وناسخها ومنسوخها؛ ولهذا كان سلفنا الصالح يعنون بهذه الناحية، ويلفتون أنظار الناس إليها، ويحملونهم عليها، ولقد جاء (فسر الحكمة في قوله تعالى: "وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ فِي الْأَثَرِ أَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ) أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا"⁽²⁾ بمعرفة ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، ولا شك أن إدراك الناسخ والمنسوخ يقف الباحث والمفسر على السابق والمسبوق من القرآن الكريم، ويطلعه على الأحوال التي نزل القرآن الكريم ليعالجها، وهذه كلها شواهد تحيط الإنسان علماً بالمناخ الذي نزل فيه القرآن الكريم، وتجعله أقدر على توظيف الآية القرآنية الكريمة في مكانها الطبيعي، دون غلو ولا شطط، (إن علم الناسخ والمنسوخ يلقي الضوء ساطعاً على المراحل المتعاقبة لنزول القرآن الكريم، ويعين على تتبعها ورسمها بدقة بالغة وهو ضرب من ضروب التدرج في نزول الوحي، ومعرفة بما صح من جوهره تيسر علينا تعيين السابق والمسبوق من النوازل القرآنية، وتظهرنا على جانب من حكمة الله - تعالى - في تربية الخلق، وتقننا على المصدر الحقيقي للقرآن الكريم، وهو الله - تعالى - رب العالمين لأنه يمحو ما يشاء ويثبت، ويوقع حكماً ويبدل آخر، من غير أن يكون لأحد من خلقه عمل في ذلك ولا شأن)⁽³⁾.

فعلم الناسخ والمنسوخ باب من أبواب فهم القرآن فهماً صحيحاً، دون خلط

(1) انظر البرهان في علوم القرآن: ج2 ص 157، 158 بتصرف يسير.

(2) البقرة: من الآية 269.

(3) انظر مباحث في علوم القرآن، د صبحي الصالح، ص ط دار العلم للملايين، ط الرابعة، بتصرف يسير.

بين المفاهيم؛ لأنه يوضح مسيرة التشريع الإسلامي في المسائل الاجتماعية والتشريعية، ويضع خارطة في ذهن الباحث والمفسر من خلالها يستطيع أن يستبين مواطن خطواته ومضان مطلوبه.

القاعدة الرابعة

معرفة المحكم والمتشابه

معرفة محكم القرآن الكريم ومتشابهه باب قوي من بواب الفهم الصحيح للقرآن الكريم، وطريق من طرق التوصل إلى إدراك المعنى القرآني، عبر وسيلة آمنة، وضابط من الضوابط التي لو راعاها المفسر والباحث والقارئ لنجا من الزيغ والسقوط في فهم غير صحيح، أو رأي غير عاقل؛ من هنا عني العلماء قديماً وحديثاً، لهذا الباب في دراسات خاصة، وفي تناولهم لمباحث علوم القرآن، وإطلالة سريعة على

فهرس أي سفر من أسفار علوم القرآن ستوضح هذا الأمر ببساطة وبسر.

ذلك أن القرآن الكريم وردت فيه آيات ثلاث، تفيد أولها: أن القرآن الكريم كله محكم، وهي قوله تعالى: "الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ"⁽¹⁾

وآية تدل على أنه كله متشابه، وهي قوله تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ"⁽²⁾، والثالثة تفيد أن بعضه محكم، وبعضه متشابه، وهي قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"⁽³⁾

وقد ذكر العلماء وجوهاً وتوجيهات لهذه الآيات الكريمة نختار منها: أن المراد بالإحكام: (أنه رصين ومتقن حكيم، يتحدى الزمن، ولا ينتابه تصدع ولا وهن، ومعني كونه متشابهاً: أنه يشبه بعضه بعضاً، في إحكامه، وحسن بيانه، وبلوغه حد الإيجاز في ألفاظه ومعانيه، حتى إنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلمات وآيات في هذا الحسن والإحكام والإيجاز، كأنه حلقة مفرغة، لا يدري أين طرفاها، وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه فمعناه: أن من القرآن ما اتضحت دلالاته على مراد الله - تعالى -، ومنه ما خفيت دلالاته على هذا المراد الكريم، فالأول هو المحكم، والثاني هو

(1) فصلت: 1.

(2) الزمر: 23.

(3) آل عمران: 7.

المتشابه، على خلاف بين العلماء في ذلك، على أن الذي اتفقوا عليه ولا يمكن أن يختلفوا فيه هو أنه لا تنافي بين كون القرآن كله محكماً دقيقاً وبين كونه كله متشابهاً أي يشبه بعضه بعضاً في هذا الإتقان، والإحكام وبين كونه منقسماً إلى ما اتضحت دلالاته على مراد الله تعالى وما خفيت دلالاته.

ومما يظهر لك منزلة هذا الباب في الفهم والتفسير أن تدرك أن آية آل عمران وهي قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ" الآية كانت فارقة بين السلف والخلف في الفهم والتفسير، فقد وقف السلف على قوله تعالى: "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ"، وعدوا الواو استئنافيه لمعنى جديد، ورأي الخلف أن الواو العاطفة عطفت الراسخين في العلم على لفظ الجلالة (الله) في العلم بالمتشابه، يقول الإمام الزركشي - رحمه الله - في البرهان: (فمنهم من رجع أنها (أي الواو) للاستئناف وأن الوقف على "إِلَّا اللَّهُ" أن الله تعبدهم من كتابه بما لا يعلمون، وهو المتشابه كما تعبدهم من دينه بما لا يعقلون، وهو التعبدات... وفهم من رجع أنها للعطف أن الله لم يكلف الخلق بما لا يعلمون، وضعف الأول لأن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده، ويدل على معنى أرادته، فلو كان المتشابه لا يعلمه لم يعلم المتشابه، p غير الله لكرر معناه، ولا يسوغ لأحد أن يقول: إن رسول الله فإذا جاز أن يعرفه الرسول مع قوله: "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ" جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته، والمفسرون من أمته، ألا ترى أن ابن عباس كان يقول: أنا من الراسخين في العلم، ويقول عند قراءة قوله تعالى في أصحاب الكهف "وَمَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ" (1) وأنا من أولئك قليل) (2)

(1) الكهف: 22.

(2) البرهان: ج2 ص 202، 203، والأثر أخرجه الطبري، عند تفسير الآية الكريمة، والسيوطي في الدر المنثور.

من هنا تظهر قيمة إدراك المحكم والمتشابه لتفسير كتاب الله عز وجل.

القاعدة الخامسة

معرفة الوقف والابتداء

ولا شك أن معرفة الوقف والابتداء معين على معرفة اكتمال المعنى، وفهم المراد؛ لذلك عني به العلماء قدامي ومحدثين، وعدوه علماً مستقلاً من علوم

القرآن، وقد مضى بنا قبل قليل مدى الخلاف الواقع بين السلف والخلف من أجل خلافهم في الوقف، وذلك من خلال آية آل عمران...، ونستطيع أن نفرق بين قارئ فاهم للقرآن وقارئ غير واقف على المعاني، من طريقة الوقف والابتداء عند كليهما، فقد نسمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: "فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"⁽¹⁾، فيقف على (استحياء) ويبدأ بقوله: "على استحياءٍ قَالَتْ"، فيفيدك معنيين: الأول أن مشيها كان على استحياء، والثاني أن كلامها على استحياء، وما ذلك إلا لفهمه للمعنى المبني على طريقة الوقف والابتداء، وتسمع آخر يقرأ قوله تعالى: "يَا بُنَيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ"⁽²⁾، فيقف على قوله: "لَا تَشْرِكْ"، ثم يبدأ بقوله: "بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ"، فيفيدك النهي عن الشرك، والقسم بالله: أن الشرك ظلم عظيم، وذلك مفاد من طريقة الوقف والابتداء، وكم في القرآن الكريم من جمل تحمل هذه الوقفات، حتى عده العلماء علماً من علوم القرآن، لا يكون المرء مؤهلاً للفهم إلا به؛ من هنا كثرت عناية السلف بالحديث عن الوقف والابتداء، وصلتهما بالمعنى، وأهمية إدراكها، ولم يكن هذا الاهتمام إلا بعد العصور الأولى لأسباب متعددة، منها: أن الوقف والابتداء كان معروفاً لدى الأولين حتى اختلطت الأمور على من بعدهم، فنشط لذلك حكماء أفاضل، ضبطوا وقوف القرآن وابتدأته، حسب مقتضيات المعنى، فألف فيه عدد من العلماء، منهم ابن الأنباري، وأبو جعفر النحاس، وأبو عمرو بن العلاء، أحد القراء السبعة، والإمام نافع الليثي، أحد القراء

(1) القصص: من الآية: 25.

(2) لقمان: من الآية: 13.

كذلك، والإمام ابن الجوزي، وغيرهم يقول الطاهر ابن عاشور - رحمه الله - : (لم يشتد اعتناء السلف بتحديد أوقاف القرآن لظهور أمرها، وما ذكر عن ابن النحاس من الاحتجاج لوجوب ضبط أوقاف القرآن بكلام لعبد الله بن عمر ليس واضحاً في القرائن المحتج بها...، فكان الاعتبار بفواصله التي هي مقاطع آياته عندهم أهم؛ لأن عجز قادتهم وأولي البلاغة والرأي فيهم تقوم به الحجة عليهم وعلى دهمائهم، فلما كثر الداخلون في الإسلام من دهماء العرب، ومن عموم بقية الأمم توجه اعتقاد أهل القرآن إلى ضبط وقوفه؛ تيسيراً لفهمه على قارئيه، فظهر الاعتقاد بالوقوف، وروعي فيها ما يراعي في تفسير الآيات، فكان ضبط الوقوف مقدمة لما يفاد من المعاني عند واضع الوقف⁽¹⁾، وقد اعتنى العلماء على الرغم من ذلك ببيان مواطن الوقف والابتداء، وأنواعه، والوقف المأخوذ عن النبي وكتبوا فيه كتباً مستقلة، وأكدوا على صلة المعني بالوقف والابتداء، بل ذكروا أن الأحكام الشرعية لا تستنبط استنباطاً صحيحاً إلا بتمام معرفة هذا العلم من علوم القرآن، حتى قال الإمام النكزاي: (وباب الوقف عظيم القدر، جليل الخطر؛ لأنه لا يتأتى لأحد معرفة معاني القرآن ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل، ونقل عن أبي حاتم قوله: (من لم يعرف الوقف لم يعلم القرآن، وبالجمل فالوقف حلية التلاوة، وزينة القارئ، وبلاغ التالي، وفهم المستمع، وشرف للعالم، به يعرف الفرق بين المعنيين المختلفين، والقضيتين المتنافيتين، والحكمين المتغايرين، ومن الضروري للقارئ أن يفهم ما يقرأ؛ حتى لا يغير المعنى حال قراءته، وأن يكون يقظاً متفهماً ما يقرأ ملاحظاً في الآيات وما ترمي إليه مواقع الجمل، دون الالتفات إلى التباهي بطول النفس، ودون الوقوف لأداء معان تتفق

(1) التحرير والتنوير: 1 / 84.

والأهواء البشرية، بعيدة عن شرف المعني القرآني وإعجازه⁽¹⁾ ومما مثل به العلامة ابن عاشور من فوائد معرفة الوقف والابتداء وبديع أمثلته له قوله: (إن التعدد في الوقف قد يحصل به ما يحصل بتعدد وجوه القراءات من تعدد المعني مع اتحاد الكلمات فقوله- تعالى-: "وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِّنْ فَضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا"⁽²⁾ إذا وقف على: "قَوَارِيرَ" الأول كان (قواريراً) الثاني تأكيداً لرفع احتمال المجاز في لفظ: "قَوَارِيرَ" , وإذا وقف على: "قَوَارِيرَ" الثاني كان المعني الترتيب والتصنيف, كما يقال: قرأت الكتاب: باباً, باباً, وحضروا: صفاً, صفاً, وكان قوله: "مِّنْ فَضَّةٍ" عائداً إلى قوله: "بِآيَةٍ مِّنْ فَضَّةٍ"⁽³⁾ ,

وهذا من روائع ابن عاشور في استنباطاته ولطائفه؛ من أجل ذلك أكد سلفنا على اكتمال المعني لدى القارئ عند قراءته, حتى يفهمه, ويفهم سامعه, فيبدأ بالكلام المتصل بعضه ببعض, ويقف عند تمام المعني, حتى ذكر الإمام النووي في تبيانه: (أن القارئ إذا ابتداء من وسط السورة, أو وقف على غير آخرها ينبغي له أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض, وأن يقف على الكلام المرتبط, ولا يتقيد بالأعشار والأجزاء؛ فإنها تكون في ربط الكلام المرتبط, وبعد أن مثل لبعض الأعشار والأرباع التي لا تتم قال: «مثل هذا وشبيهه ينبغي أن يبدأ به ولا يوقف عليه؛ فإنه متعلق بما قبله, ولا يعترف بكثرة الغافلين

(1) انظر الوقف والابتداء وصلتهما بالمعني في القرآن الكريم, رسالة ماجستير لزميلنا الدكتور عبد الكريم إبراهيم عوض صالح, ص 4, 5, بتصرف يسير, وانظر هذه النقول في كتاب الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء, للنكزوي, ص 11, ولطائف الإشارات, للقسطاني, 1/ 249.

(2) الإنسان: 15, 16

(3) التحرير والتنوير: 1/ 83.

له من القراء، الذين لا يراعون هذه الآداب، ولا يفكرون في هذه المعاني، ومثل ما قال: «رواه الحاكم أبو عبد الله بإسناده عن السيد الجليل الفضيل بن عياض «لا تستوحش طرق الهدى لقلّة أهلها، ولا تغتر بكثرة الهالكين، ولا يغرك قلّة السالكين»، ولهذا المعني قالت العلماء: قراءة سورة قصيرة بكاملها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة؛ فإنه قد يخطئ الارتباط على بعض الناس في بعض الأحوال، وقد روي ابن أبي داود بإسناده عن عبد الله بن أبي قال: كانوا يكرهون أن يقرؤوا بعض الآية ويتركوا الهديل التابعي المعروف بعضها»⁽¹⁾ وخلاصة القول أن معرفة الوقف والابتداء من أبواب فهم القرآن، وطريق من طرق بيان المعنى واتضاحه في ذهن القارئ والسامع، وكم رأينا من أناس يقفون على كلمات يؤدي وقفهم إلى فساد المعنى وإضاعة المراد.

القاعدة السادسة

(1) انظر التبيان في آداب حملة القرآن: ص 75، 76.

معرفة عادات العرب وأخبارهم

من الأمور اللازمة للمفسر حتى يفهم مراد القرآن، ويعي مرماه، أن يدرك عادات العرب التي نزل القرآن ليتحدث عنها، تلك التي تمثل لهم حياتهم الخاصة، التي تتميز عن حياة من سواهم، وتتفرد ببعض الخصائص والسمات، التي راعاها القرآن الكريم، ووضعها في حساباته وهو يأمرهم وينهاهم، ويعظهم، ويرشدهم، ويوجههم إلى الصراط المستقيم، فقد كان للعرب مثلاً عادات وأعراف، في علاقة الرجل بالمرأة، ونظراته إليها، في طفولتها، وبفاعتها، وشبابها، ونزل القرآن الكريم يراعي هذه العلاقة، وتلك النظرة، وأنزل لها الخطاب الوافي الكامل، الذي يتناسب مع تلك العادات، وقرأ - إن شئت - مثلاً قوله - تعالى -: وهو يتحدث عن علاقة الأب بولده إن كان أنثى: "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (1) والآية تصور بوضوح وجلاء علاقة العربي بابنته، وترصد تلك الخلفية الاجتماعية التي كان يحياها الإنسان العربي في هذا الزمان، وقرأ - إن شئت كذلك قوله تعالى: "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوْ مَن يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ" (2) والآية الكريمة تصور كذلك طبيعة هذا العربي الذي يجعل لله - تعالى - ما ياباه هو لنفسه، ويجعل له الإناث، في الوقت الذي يابى أن يرضاهن لنفسه، وإذا بشر بهن اسود وجهه، بل ظل مسوداً وهو كظيم، ومن العادات التي رصدها القرآن الكريم في حياة العرب كذلك دخولهم من خلف الدار في الأشهر الحرم، والتي صورها القرآن الكريم بقوله: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ

(1) النحل: 58، 59.

(2) الزخرف: 17، 18.

هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبُرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبُرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ⁽¹⁾, فكيف يتسنى لمفسر أن يفهم هذه الآية دون أن يفهم عادات العرب في ذلك, فقد ذكر أهل التفسير أن العرب (كانوا إذا أحرموا الحج أو العمرة من بلادهم جعلوا من أحكام الإحرام ألا يدخل المحرم بيته من بابه ولا يدخل تحت سقف يحول بينه وبين السماء, وكان المحرمون إذا أرادوا أخذ شيء من بيوتهم تسنموا على ظهور البيوت, واتخذوا نقباً في ظهور البيوت إن كانوا من أهل المدر وإن كانوا من أهل الخيام دخلوا خلف الخيمة)⁽²⁾, ومن العادات الاجتماعية والأعراف العربية التي ذكرها القرآن الكريم جعلهم البحيرة والوصيلة والسائبة والحام, وصحح معتقدهم في ذلك فقال - تعالى -: "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"⁽³⁾, فكيف يقف المفسر أمام هذه الآية دون أن يعرف الخلفية الاجتماعية لها, ودون أن يعي عادات العرب في تعاملهم مع هذه الأشياء البحيرة والوصيلة والسائبة والحام.

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب قال: (البحيرة التي يمنع ردها للطواغيت فلا يطلبها أحد من الناس, والسائبة التي كانوا يسيبونها : رأيت عمر p لآلئتهم فلا يحمل عليها شيء قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب السوائب, والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى ثم تنثى بأنثى وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم إن

(1) البقرة: 189.

(2) التحرير والتنوير: 1/ 197 , وانظر لباب النقول: 86, 87.

(3) المائدة: 103.

وصلت إحداهما بالأنثى ليس بينهما ذكروا الحام فحل يضرب الضراب المعدودة فإن أكمل ضرا به ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي⁽¹⁾

ولو لا وقوف المفسر على هذه العادات والتقاليد العربية التي نزل فيها القرآن الكريم لما فهم الفهم المطلوب.

وقد عني بجمع عادات العرب وتقاليدهم كثير من العلماء، وتوجهت همتهم إلى تسجيل وبحث جوانب من حياة العرب الاجتماعية، وألفوا فيها كتباً مستقلة، (ومن هذه الكتب الميسر والقдах، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، من رجال القرن الثالث، وقد حققه الأستاذ محي الدين الخطيب، ونشر في القاهرة سنة 1342هـ، ومنها كتاب أيمان العرب، لأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله البصري، من رجال القرن الرابع، وقد حققه الأستاذ محي الدين الخطيب كذلك، ومنها كتاب أديان العرب، الأصنام، القдах، الكهان، والجن، وما كانت الجاهلية تفعله ويوافق حكم الإسلام، وأسواق العرب، ومعظم هذه الكتب ذكرها ابن النديم في الفهرست⁽²⁾، ودراسة هذا الجانب من جوانب الخلفية الاجتماعية التي نزل فيها القرآن الكريم من الأهمية بمكان، لإدراك مرامي القرآن الكريم، ومقاصده، ووسائله، فمعالجة هذه الجوانب والعادات، ودراسة المفسر لها، وإلمامه بها تفتح له أبواباً من الفهم، ومدارك متعددة من المعارف التي تمثل شيئاً مهماً ذا بال من الخلفية الاجتماعية، التي تعين على فهم القرآن الكريم، ومعرفة أخبار العرب كذلك، ولأمر ما كانت الدراسات الاستشراقية تعني برصد العادات، والتقاليد، والأخبار، والمعارف، صغيرها وكبيرها، للأمة التي

(1) صحيح البخاري، 3-، 1297 ومسلم 4-2194.

(2) انظر: بحوث في أصول التفسير، للأستاذ الشيخ محمد الصباغ، ص 187، 188، بتصرف وترتيب.

تريد أن تغزوها؛ فإن هذه الدراسات تمثل جانباً من جوانب الشخصية المعنية، والتي يراد فهمها، وقد ذكر الطاهر بن عاشور -رحمه الله- شيئاً من ذلك في مقدماته للتعليق، وأنكر على من عد معرفة أخبار العرب شيئاً من اللغو فقال: «وأما أخبار العرب فهي من جملة أدبهم، وإنما خصصتها بالذكر؛ تنبيهاً لمن يتوهم أن الاشتغال بها من اللغو، فهي يستعان بها على فهم ما أوجزه القرآن في سوقها؛ لأن القرآن إنما يذكر القصص والأخبار، للموعظة والاعتبار، لا لأن يتحادث الناس بها في الأسفار، فبمعرفة الأخبار يعرف ما أشارت إليه الآيات من دقائق المعاني، فنحو قوله تعالى: "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَظَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا"⁽¹⁾ وقوله تعالى: "قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ"⁽²⁾ يتوقف على معرفة أخبار العرب"⁽³⁾ فمعرفة أخبار العرب تتيح للمفسر وقارئ القرآن الكريم أن يتصور تلك الحياة الاجتماعية، التي نزل القرآن الكريم فيها، يخاطب العرب بأمورهم، وينهاهم، ويرشدهم، مقرأً لبعض معارفهم وعاداتهم، ومقوماً لبعضها الآخر، والشيخ محمد عبده -رحمه الله-، وهو يتناول الحديث عن مراتب التفسير، يذكر أن أعلى مراتب التفسير لا تتم إلا بأمور ومقومات منها: (معرفة المفسر بما كان عليه الناس في عصر النبوة، من العرب وغيرهم؛ لأن القرآن ينادي بعث لهذا يتهم وإسعادهم، بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأن النبي وكيف يفهم المفسر ما قيمته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة، أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه؟ هل يكفي من دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد، بأن يقولوا -تقليداً لغيرهم: إن الناس كانوا على باطل، وإن القرآن دحض - أنه قال إنما تنقض عرى إبائيلهم في الجملة... كلا... لقد روي عن عمر -

(1) النحل: من الآية: 92.

(2) البروج: من الآية: 4.

(3) التحرير والتنوير: ج 1 ص 25.

الإسلام عروة، عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية، والمراد من أنه نشأ في الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله يجهل تأثير هدايته وعناية الله بجعله مغيراً لأحوال البشر، ومخرجاً لهم من الظلمات إلى النور، ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادي⁽¹⁾، فلا يتم فهم عظمة هذا الدين، ولا يفهم كتابه المبين إلا بهذه الخلفية الاجتماعية التي تعطي للمفسر تصوراً صادقاً عن حال الناس، وعاداتهم، وطبائعهم، وقت نزول القرآن، وسحب هذه الخلفية إلى العصور الأخرى، والشرائع التالية؛ حتى يكون الفهم فهماً سديداً بعيداً، عن الانحراف أو الخطأ.

(1) انظر المنار: ج 1، ص 21، بتصرف يسير.

القاعدة السابعة

معرفة علم أحوال البشر

يقصد بعلم أحوال البشر: العلم الذي يتناول طبائع الناس عامة، وأطوارهم، وأدوارهم، واختلافهم؛ فإنه يعرض للخالف ما عرض للسالف، ويمضي على اللاحق ما مضى على السابق، والتاريخ كما يقولون، يعيد نفسه، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنه يعني بذكر قصص السابقين، ويصور أسباب بقائهم أو فنائهم، وعوامل قوتهم أو ضعفهم، ووقوف المفسر على هذه المعرفة يعطيه قدرة على الوصول إلى مكنون القرآن الكريم، وإذا كانت القاعدة السابقة تعني بدراسة البيئة الاجتماعية، والخلفية الحياتية للعرب، وهم من نزل فيهم القرآن الكريم، فإن هذه القاعدة تعني بدراسة أحوال الإنسان بصفة عامة، وذلك يتيح للمفسر أن يصل إلى المعنى القرآني بوضوح وجلالة، وقد تناول الأستاذ محمد عبده هذا في حديثه عن الأمور التي لا يتم الوصول إلى أعلى مراتب التفسير إلا بها، فذكر أن من ذلك «علم أحوال البشر ذلك أن الله تعالى أنزل هذا الكتاب، وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه في غيره، بيّن فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم، والسنن الإلهية في البشر، قص علينا أحسن القصص، عن الأمم وسيرها الموافقة لسنن من قبلها، فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر، في أطوارهم، وأدوارهم، واختلاف أحوالهم، من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر.

.. ويقول الأستاذ الإمام- رحمه الله- : أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: " كَانِ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ " (1) ، وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ؟ ، وكيف تفرقوا ؟ ، وما معني الوحدة التي كانوا عليها ؟ ، وهل كانت نافعة أو ضارة ؟ ، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم ؟ ، لقد أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية ، وعن آياته في السماوات والأرض ، وفي الآفاق والأنفس ، وهو إجمال صادر عن أحاط بكل شيء علماً ، وأمرنا بالنظر والتفكير ، والسير في الأرض ؛ لتفهم إجماله بالتفصيل ، الذي يزيدنا ارتقاءً وكمالاً ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره ، لكننا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمه (2) .

بهذا الوضوح والجلاء بين الأستاذ الإمام- رحمه الله- مدى أهمية دراسة أحوال الناس ، وأدوارهم ، ومنا شيء حياتهم ؛ حتى تعطى صورة صادقة عن القرآن ، الذي نزل لصالحهم ، وكشف أدوائهم ، وعظة الناس عن خلاقهم ، ولا شك أن إدراك المفسر لهذه المعطيات يوسع مداركه ، ويقوي نظره إلى الكتاب ، ويجعل أخذه أخذاً عاقلاً ، مبنياً على أسس ونواميس .

(1) البقرة: 213.

(2) المنار: 1/ 20,21.

القاعدة الثامنة:

معرفة معهود الخطاب القرآني

نزل القرآن لكريم بلسان العرب، تحدث بحديثهم، وعالج قضاياهم، وعبر بلغتهم، على عهد الله - تعالى - في إنزال الكتب وإرسال الرسل، "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"، وتميز القرآن في خطابه وبيانه، وإرشاده وبلاغه، بتركييب معينة، وعبارات خاصة، تتبعها العلماء قديماً وحديثاً، ووقوف المفسر على هذه التعبيرات يفقه على فهم دقيق لما يعرض له من آيات بينات، وقد وقف الطاهر بن عاشور على هذه القاعدة وذكرها في المقدمة العاشرة من مقدماته التي قدم بها لتفسيره فقال: «يحق على المفسر أن يتعرف عادات القرآن، من نظم وكلمة، وقد تعرض بعض السلف لشيء منها، فعن ابن عباس: كل كأس في القرآن فالمراد بها الخمر، وذكر ذلك الطبري⁽¹⁾ أيضاً عن الضحاك، وفي صحيح البخاري⁽²⁾ في تفسير سورة الأنفال، قال ابن عيينة: ما سمي الله مطراً في القرآن إلا عذاباً، وتسميه العرب الغيث، كما قال - تعالى -: "وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا"⁽³⁾، وعن ابن عباس أن كل ما جاء يأيها الناس فالمقصود به أهل مكة المشركون، وقال الجاحظ

(1) انظر جامع البيان، عند تفسيره لقوله تعالى: بكأس من معين، ج 23 ص 53، ط: دار الفكر، بيروت 1405.

(2) - ج 4 ص 1704.

(3) الشورى: 28.

في البيان⁽¹⁾ ، وفي القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرغبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس، قلت: والنفع والضرر، والسماء والأرض، وذكر صاحب الكشف، وفخر الدين الرازي أن من عادة القرآن أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعيد، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة، ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض، لمناسبة التضاد، وفي الكشف في قوله- تعالى:- "وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ"⁽²⁾ ، جاء به ماضياً، على عادة الله في أخباره⁽³⁾ ، وقال فخر الدين الرازي في تفسير قوله- تعالى:- "يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ"⁽⁴⁾ ، وعادة الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعاً كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إما بالإنهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء في أحوال القيامة، ليصير ذلك مؤكداً لما يقدم ذكره من التكاليف والشرائع⁽⁵⁾ ، ثم مضى ابن عاشور -رحمه الله- يؤكد على هذه القاعدة من قواعد فهم القرآن الكريم، واستيعاب مراده، فإنه تتبع بنفسه هذا النمط من تعبيرات القرآن، فوجده يمضي على طريقة مفردة، ومن هذه التعبيرات التي حصرها ابن عاشور: (أن كلمة هؤلاء إذا لم يجرى بعدها عطف بيان تبين المشار إليهم فإنها يراد بها المشركون من أهل مكة، كقوله- تعالى:- "بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ"⁽⁶⁾ ، وقوله: "فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ

(ج 1 ص 27، ط: دار صعب ، بيروت ، ط أولى 1968 م، ت / فوزي عطوي.¹

(2) الصافات: 50، 51.

- الكشف: 1/ 1061.³

(4) المائدة: من الآية 109.

(5) انظر التحرير والتنوير: ج 1، ص 124، 125.

(6) الزخرف: 29.

وَكَلَّنَا بِهَا قَوْمًا لِّيُسُّوا بِهَا كَافِرِينَ⁽¹⁾ , ومن أساليب القرآن أنه إذا حكي المحاورات والمجاولات حكاها بلفظ قال, دون حرف عطف إلا إذا انتقل من محاوراة إلى أخرى⁽²⁾, ولا شك أن الوقوف على أسلوب القرآن الكريم, وانفراداته يقف المفسر والقارئ على خبر عظيم, ويضع يده على مفاتيح الفهم ووسائل الإدراك.

(1) الأنعام: 89.

(2) التحرير والتتوير: 1/ 125.

القاعدة التاسعة

معرفة قواعد اللغة العربية

نزل القرآن الكريم بلسان العرب، وتميز بخصائص تلك اللغة، التي أعلى الله - تعالى - قدرها، وخلد في العالمين ذكرها، بل أنزل كتابه الخالد بها، من هنا كان فهم اللغة وقواعدها ومعرفة أساليبها باباً من أبواب فهم القرآن، ومعرفة مقاصده؛ فإن العربية تميزت بتراكيب معينة عن باقي لغات اللسان، لا تخفى على صاحب النظرة العجلى، فضلاً عن المتأنية من هنا عني علماؤنا بالتأكيد على أن فهم اللغة سبيل إلى فهم القرآن، فيرى ابن جرير الطبري - رحمه الله - أن اللغة وفهمها شرط لفهم القرآن الكريم، ولا يمكن أن يفهم بالتقصير فيها، فيقول وهو يتحدث عن أهمية اللغة: «وأول ما نبداً به من القيل في ذلك، الإبانة عن الأسباب التي البداية بها أولى، وتقديمها على ما عداها أخرى، وذلك البيان عما في أي القرآن من المعاني التي من قبلها يدخل اللبس على من لم يعان بريضة العلوم العربية، ولم تستحكم معرفته بتصاريف وجوه منطق الألسن السليقة الطبيعية»⁽¹⁾، فتعلم العربية أمر لا بد منه لفهم المراد من القرآن الكريم، إذ كيف يفهم خطاباً من لم يدرك خصائص اللغة، ولم يتعرف مزايا بيانه، وعلى قدر تفاوت الناس في فهم خصائص العربية تتفاوت فهمهم وعلومهم بالقرآن الكريم، ولا يقصد بالعربية مفردات ألفاظ فحسب، أو التراكيب فقط، أو البيان والمعاني والأساليب، إنما يعني جميع ذلك وغيره، مما له صلة في بيان القرآن، وإيضاح مراده، «إن القرآن كلام عربي، فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط، وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد

(1) جامع البيان: 1/ من المقدمة.

العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع في أساليبهم، في خطبهم، وأشعارهم، وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل، والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين⁽¹⁾ وقد أكد الإمام الزمخشري على ضرورة علمي المعاني والبيان لفهم القرآن فقال في مقدمة تفسيره: (علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه، وإطالة النظر فيه، كل ذي علم، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القُرَّيَّة أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحي من سيبويه، واللغوي وإن يملك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علما البيان والمعاني)⁽²⁾ وكذلك صاحب المفتاح يؤكد على أهمية علم المعاني والبيان لفهم القرآن، بقوله: لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله - تعالى - من علمي المعاني والبيان، ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيقت حقها، واستلبت ماءها ورونقها، أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مأخذ مردودة وحملوها على محامل غير مقصودة⁽³⁾، ولا تجد مصلحاً وضع القرآن نصب عينيه في إصلاحه إلا وربط ذلك بكون اللغة هي وسيلة فهمه للقرآن، وإدراك مراميه ولعل في كلام الأستاذ محمد عبده

(1) التحرير والتنوير: 1/ 18.

(2) الكشف من المقدمة: ج 1، 15 و 16، ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان بدون، وانظر التحرير والتنوير: 1/ 19.

(3) انظر التحرير والتنوير 1/ 20.

ما يؤيد ذلك إذ يؤكد رحمه الله ذلك بقوله: (بقاء الإسلام لا يكون إلا بفهم القرآن فهماً صحيحاً، ولا بقاء لفهم القرآن إلا بحياة اللغة العربية، فإن كان باقياً في بعض الأعاجم فإنما بقاؤه بوجود بعض العلماء العارفين من التفسير ما يكفي لرد الشبهات عن القرآن عندهم، وبقاء ثقة العامة بهم، فهم ربما يقولونه تقليداً لهم فيه أو بعدم عروض الشبه لهم من دعاة الأديان الأخرى، مع تأثير الوراثة والتقليد، من قبيل ما يسمى في العلم الطبيعي بحركة الاستمرار، ولهذا اتفق علماء الإسلام من العرب والعجم على حفظ اللغة العربية ونشرها، وكان العلم والدين في أوج القوة بحياة اللغة العربية)⁽¹⁾ وخلاصة القول: أن معرفة العربية ومفرداتها وأساليبها يعين القارئ والمفسر على الفهم الصحيح، ويوضح أمامه الرؤية التي يتغياها من القرآن الكريم.

(1) انظر تفسير المنار، ج1 ص 24، 25، وانظر ج1/ 20.

القاعدة العاشرة

معرفة موضوع القرآن ومقاصده الأساسية

إن معرفة أهداف القرآن الكريم ومقاصده تقصر الطريق على الباحثين عن المعرفة القرآنية، والفهم القرآني؛ ذلك لأن إدراك الهدف من أي شيء سبيل يوصل إلى إدراك المراد منه. (إننا قبل أن ننظر في كتاب ما عن مسألة من مسائل العلم تشغل بالنظر في موضوع الكتاب، فمثلاً لو أن إنساناً أراد أن يبحث في قاعدة نحوية لرجع إلى كتاب من كتب النحو، ولا نتصور أن يأخذ كتاباً في علم النفس، ويبحث فيه عن تلك القاعدة النحوية.. ولو فعل ذلك لكان جاهلاً، وموضوع القرآن: هو الإنسان والحياة الإنسانية، ولقد عالج القرآن الكريم قضية الإنسان، وحدد أساس نجاحه وسعادته، وحدد أسباب حزنه وشقائه، ويفهم من آياته البينات المعجزات أن التصورات البشرية التي وضعها الإنسان عن نفسه وعن الكون والحياة والخالق مدفوعاً بدراسته السطحية، ومتأثراً بالأهواء الظاهرة والخفية، تصورات باطلة مهلكة، وكذلك فإن المواقف التي اتخذها على أساس تلك التصورات باطلة أيضاً ومهلكة⁽¹⁾، ويرفض الأستاذ سيد قطب - بحق أن يكون القرآن كتاب علم فلكي أو كيميائي وطبي، كما يحاول أن يصوره البعض، ويؤكد على أن موضوع القرآن الأساسي ومجاله الرئيس هو: النفس الإنسانية والحياة الإنسانية، وأن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه أن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته، إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان: ذاته، تصوره، واعتقاده، ومشاعره، ومفهوماته،

(1) بحوث في أصول التفسير، د. محمد لطفي الصباغ، ط المكتب الإسلامي، ط الأولى 1408 هـ، 1988، ص 236،

وسلوكه، وأعماله، وروابطه، وعلاقاته.....، إن القرآن كتاب كامل في موضوعه وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها؛ لأنه هو الإنسان ذاته، الذي يكشف هذه المعلومات، وينتفع بها، والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان، والقرآن يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يستخدم هذه الطاقات المذخورة فيه بعد أن يوجد الإنسان السليم التصور، والتفكير، والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط⁽¹⁾، إن إدراك المفسر والقارئ لهذه الكليات الجامعة، والقضايا والأهداف الواضحة لموضوع القرآن، يجعل نظره ينصب على الموضوع الأساس الذي نزل له القرآن الكريم، وهو الإنسان والإنسانية، ذلك الذي أراد الله - تعالى - له أن يكون خليفته في أرضه، فخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأرسل له رسله، وأنزل له كتبه، يتعهد حيناً بعد حين، حتى يخرج من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى.

وكما أن فهم موضوع القرآن معين على فهم القرآن الكريم، فكذلك فهم المقاصد الأساسية التي يتغياها القرآن الكريم يعين القارئ والمفسر على إدراك خفيات هذه المقاصد والكليات التي نزل القرآن ليرسخها، من خلال أساليبه المتعددة، وطرائقه المتنوعة، من: القصص، إلى الوعظ والإرشاد، والتوحيد، على الأمر أو - وألا^٢ النهي) فمن اللازم لمن يريد أن يحسن الفهم عن الله - عز وجل - ورسوله - يكتفي بالوقوف عند حرفية النصوص، ويحمد على ظواهرها ولا يتأمل فيما وراء أحكامها من علل، وما تهدف إليه من مقاصد، وما سعي إلى تحقيقه من مصالح، مادية، أو معنوية، أو فردية، أو اجتماعية، دنيوية، أو أخروية.. إن مهمة الراسخين في العلم أن يبحثوا عن مقاصد الشرع، ومن خلال النصوص، بعد أن يتجولوا في

(1) انظر بحوث في أصول التفسير، 235، 236.

آفاقها، ويغوصوا في أعماقها، ويربطوا جزئياتها بكلياتها ويردوا فروعها إلى أصولها، ويشدد أحكامها بعضها ببعض، بحيث تتسق وتنظم انتظام الحبات في عقدها، مع اليقين بأن الشريعة الغراء لا تفرق بين متساويين، كما لا يسوي بين مختلفين⁽¹⁾، وإدراك هذه المقاصد القرآنية الجادة يعصم العقل الذي يتناول الآيات من أن يشط بها في التفسير، أو ينحو بها إلى غير مسارها، من هنا عني عدد غير قليل من الأئمة المبرزين، والعلماء المعدودين بذكر العلاقة بين صحة الفهم القرآني وإدراك المقاصد الأساسية للقرآن، ومن هؤلاء: الطاهر ابن عاشور - رحمه الله - إذ تناول ذلك في مقدمات تفسيره - التحرير والتنوير، فذكر أن: (المقصد الأعلى من القرآن هو صلاح الأحوال الفردية والاجتماعية والعمرانية، فالصلاح الفردي يعتمد على تهذيب النفس، وتركيتها، ورأي الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح الشريعة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة، كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر، وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك، وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض، على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات وموانة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسية المدنية، وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم، بعضهم مع بعض، على وجه يحفظ مصالح الجميع، ويرعى المصالح الكلية الإسلامية، ويحفظ المصالح العامة عند معارضة المصلحة الخاصة، ويسمى هذا بعلم العمران، وعلم الاجتماع⁽²⁾، ثم

(1) انظر المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة، للدكتور يوسف القرضاوي، ص 229، 230، بتصرف يسير، ط: مؤسسة الرسالة، ط أولى 1414 هـ 1993 م .

(2) التحرير والتنوير: 1/ 38.

عدد الشيخ- رحمه الله -عددًا من المقاصد الكلية، والأهداف الأساسية التي حرص القرآن على إبرازها، والتي لا يمكن لمفسر أو قارئ أن يستوعب معاني القرآن بقدر طاقته البشرية إلا إذا مر بها فقال: «إن هذه المقاصد الأساسية التي جاء القرآن لبيانها، ويجب على المسلم الأخذ بها ثمانية، وهي: الأول إصلاح في الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح وهذا أعظم سبب لإصلاح في الخلق لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك..... وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله- تعالى:- "فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ"⁽¹⁾ فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم وليس هو من فعل الآلهة ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة.

الثاني: تهذيب الأخلاق قال تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"⁽²⁾... وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب، بله خاصة الصحابة، وقال أبو أفراس الهذلي مشيراً إلى ما دخل على العرب من أحكام الإسلام بأحسن تعبير:

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل

أراد بإحاطة السلاسل بالرقاب أحكام الإسلام، والشاهد في قوله:

وعاد الفتى كالكهل.

(1) هود: 101.

القلم آية: 4-2.

الثالث: التشريع، وهو الأحكام خاصة وعامة.

والرابع: سياسة الأمة، وهو باب عظيم في القرآن، القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها، فالإشارة إلى تكوين الجامعة بقوله: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا" (1).

والخامس: القصص، وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم "تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ" (2).

والسادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع، وعلم الأخبار، وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب، وقد زاد القرآن الكريم على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول، وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين، وفي دعوته إلى النظر ثم نوه بشأن الحكمة فقال: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" (3) ، وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم، وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل، إنما قصارى علومهم أمور غير بينة، وكان حكماؤهم أفراداً (4).

(2) آل عمران: 103.

(3) يوسف: 3.

(4) البقرة: 269.

- التحرير والتنوير 41/1 .4

القاعدة الحادية عشرة

فهم حقائق الألفاظ المفردة

لا ينكر إنسان أن القرآن نزل بلسان العرب ولغتهم، واستخدم ألفاظهم وتعبيراتهم، وصور أدق تصوير وأرقاه ما يريده من حكم وآداب، وقيم ومثل كما أنه من المسلم لغة أن اللغة- أي لغة تشبه- الكائن الحي في نموه وتطوره، وارتقائه من طور إلى طور، ومن مرحلة إلى مرحلة، وهذا كلام واسع الفصول، طويل الأكماء والذبول، يدركه من ينظر في كتب اللغة وفقهها معرفة وثقافة، ويعايشه من يرصد تلك الظاهرة حركة وواقعا، و للألفاظ المفردة دلالات قد تختلف، تقترب أو تباعد من عصر إلى عصر، ومن زمان إلى زمان، وحتى يفهم المفسر فهما صحيحا صائبا عليه أن يدرك زمن نزول هذه الألفاظ المفردة، ودلالاتها الآنية، واستخداماتها في عصر النزول، فدلالة المفردة لا تكون على طول المدى دلالة واحدة، لا تتغير ولا تتطور، وإنما تتغير شيئا فشيئا من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة في نفس العصر وذات الزمان ووصول المتعامل مع القرآن إلى المعنى الدلالي الأصيل الذي نزلت المفردة القرآنية عليه وقت نزولها يعينه على الفهم الصائب والإدراك السليم، وقد عني بهذه الفكرة ونظّر لها الأستاذ أمين الخولي - رحمه الله - وهو رائد المدرسة البنيانية، التي نسجت على

منواله، ومن أبرز أفرادها د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطي، والدكتور شكري عياد، وقد حاولت بنت الشاطي تطبيق هذه النظرية في دراساتها شيئا، وحاول الدكتور شكري - صبوراً أن يسلك هذا المنهج في أطروحته عن يوم الدين والحساب، والمدرسة البيانية في مجمل منهجها حاولت أن تدرس القرآن عبر مراحل، منها دراسة المفردة في زمان نزولها، ثم دراستها في طول القرآن كله، ثم دراستها في السياق القرآني حتى يكون فهم المفسر أقرب ما يكون إلى مقصود القرآن⁽¹⁾. وقد عرض الأستاذ الإمام محمد عبده - رحمه الله - لهذه الجزئية وأثرها في فهم القرآن الكريم، فذكر عند حديثه عن مراتب التفسير وأنها متعددة أن أعلى مرتبة من مراتب التفسير لاتتم إلا بأمر منها: (فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن، بحيث يحقق للمفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان؛ فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل في زمن النزول لمعان، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد، من ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً، أو على وجه الخصوص، ولكنه جاء في القرآن بمعان أخرى، كقوله تعالى: " هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق "⁽²⁾ فما هذا التأويل؟ يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة، ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب؛ فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الأولى، فعلى المدقق أن يفسر

- انظر في ذلك بتوسع: موازنة بين منهجي المدرسة الإصلاحية والمدرسة البيانية في التفسير وعلوم القرآن،¹ رسالة دكتوراة، مخطوطة في كلية الدراسات الإسلامية - جامعة الأزهر، للباحث.

- الأعراف: من الآية 53.²

القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه، بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، وربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره.....ويحقق كيف يتفق معناه، مع جملة معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه بعضا، وإن أفضل قرينة تعين على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سيق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملة (1)، ولا يخفى أن هذا الكلام في غاية البيان عن ضرورة دراسة المفردة في عصر نزولها واستخدامها الأول، ودراستها من خلال دورانها في القرآن الكريم، فقد ترد المفردة في مواطن متعددة بمعان متعددة كما سبق في كلام الشيخ - رحمه الله - وكما هو واقع ملاحظ، فلفظة: "خير" مثلا الواردة في أكثر من موطن في القرآن، وردت في كل موطن بمعنى، فقد وردت في سورة البقرة في قوله- تعالى- : " كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين " (2)، وهي تعني ما يتركه المتوفى من مال ومتاع ونحوه، ووردت في سورة القصص في قوله- تعالى-: "رب إنني لما أنزلت إلي من خير فقير" (3) بمعنى الطعام والشراب، ووردت في سورة ص، في قوله- تعالى- : "إنني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب" (4)، بمعنى الخيل التي شغل بها سليمان - عليه السلام - عن

1 المنار: 20، 19/1 .

2 البقرة من الآية 180

3 القصص: 24

4 ص: 32 .

الصلاة وفي سورة العاديات, في قوله- تعالى- : "وإنه لحب الخير لشديد" ⁽¹⁾, بمعنى المال, وهكذا تتعدد المعاني المرادة من اللفظة القرآنية حسب السياق الذي ترد فيه, ووعي المفسر والقارئ والمتعامل مع القرآن بهذه القاعدة يوفر عليه الكثير من البعد عن المراد ويقرب له غرضه المقصود وهدفه المنشود .

المبحث الثالث

عقبات في طريق الفهم

وإذا كنا قد عرجنا على بعض القواعد التي تعين على الفهم السليم لمضامين القرآن الكريم, وهي كل من كثر, وغيب من فيض, مما يحتاج إلى دراسة متصلة موسعة, فإن هناك عقبات كأداء, تقف حجر عثرة أمام الإنسان في طريق فهم القرآن الكريم, ومن أبرز هذه العقبات ما يلي:

1- عدم التدبر والميل إلى نزعة أو مذهب

فإن ذلك يقطع على الإنسان طريق الفهم, ويجعله يصدر أحكاماً مسبقة, بناء على تصورات خاضعة لمذهبه, أو نزعته الكامنة في عقله, ولا يتيح له الفرصة ليتعرف على مراد الله- تعالى- من كلامه, بناء على ما لديه من ميل عاطفي, تبعه ميل فكري إلى قناعة معينة, ورؤية مسبقة, فيبادر إلى المصادرة على الفهم السليم والإدراك الصحيح, ولو كان قد قدم إلى القرآن الكريم خالي

العاديات: آية 8. ¹

الذهن، إلا من وسائل الفهم الصحيح، وألقى عقله لهذا الدستور الإلهي الخالد، يشكله كيف شاء، لانتفع أيما نفع، وفهمه أيما فهم، لكنه قدم إلى القرآن الكريم ولديه رؤى سابقة، وفهوم يقدمها بين يدي الفهم الصحيح للقرآن الكريم، بل قد يلوي مراد الآية إلى غير سبيلها، ويحول مجراها إلى غير طريقها، حتى توافق هواه، وتأتي مطابقة لفهمه السقيم، وقد ذكر صاحب التحرير والتنوير أن من له ميل إلى نزعة، أو مذهب، أو علة، (يتأول القرآن على وفق رأيه، ويصرفه عن المراد، ويرغمه على تحمل ما لا يساعد عليه المعني المتعارف، فيجر شهادة القرآن لتعزيز رأيه، ويمنعه عن فهم القرآن حق الفهم ما قيد عقله من التعصب عن أن يجاوزه، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه، حتى إن لمع له بارق حق وبداله معني يباين مذهبه حمل عليه شيطان التعصب حملة، وقال كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقدك، كمن يعتقد من الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فإن خطر له أن يعي قوله تعالى "الْقُدُّوسُ" [الحشر: 23] أنه الممتنزه عن كل صفات المحدثات، حجه تقليده عن أن يتقرر ذلك في نفسه، ولو تقرر لتوصل فهمه فيه إلى كشف معني ثاني أو ثالث، ولكنه يسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته مذهبه، وجمود الطبع على الظاهر مانع من التوصل اللغوي⁽¹⁾ وقد وصف الغزالي هذا الذي حال ميله إلى نزعته ومذهبه بينه وبين الفهم بأنه: (شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن لمع برق على بُعد، وبدا له معني من المعاني التي تباين مسموعه، حمل عليه شيطان التقليد حملة، وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك، فيرى أن ذلك غرور الشيطان، فيتباعد

(1) انظر التحرير والتنوير: ج1 ص31.

منه، ويحترز عن مثله. ولمثل هذا قالت الصوفية: إن العلم حجاب، وأرادوا بالعلم: العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد، أو بمجرد كلمات جدلية، قررها المتعصبون للمذاهب، وألقوها إليهم، أما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة، فكيف يكون حجاباً وهو منتهى الطلب؟ وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً. (1)

2- النظرة الجزئية للقرآن الكريم

إن النظرة الجزئية لآيات القرآن الكريم أو التصور الموضوعي تصور ناقص يمثل عقبة من عقبات الفهم القرآني ذلك أن القرآن الكريم صورة متشابكة الأجزاء متلاحمة الأعضاء لا يغني جزء منها عن جزء آخر بل يكمل بعضها بعضاً وتؤدي في النهاية إلى فكرة واضحة وقيمة مكتملة يخدم بعضها بعضاً وإطالة سريعة على شريحة معينة من الآيات الكريمة تدلك بجلاء كيف تناول القرآن الكريم حديثاً عن القراءة والخلق وطغيان الإنسان في تلاؤم تام، وانسجام كامل؛ (فالقرآن غذاء روعي مكتمل العناصر، وكما أتناول على المائدة مجموعة من السكريات والنشويات والدهنيات وما إلى ذلك في طعام واحد، أو في أغذية واحدة في وجبة واحدة، فكذلك يتقدم لنا القرآن برسالة حياة شاملة، لا تدع جزءاً منه إلا ويمتد إليه، ويجري الوحي الإلهي خلال هذا النسق القرآني، كما تجري الدماء داخل العروق لتشمل الرأس والقدم، الجهاز يدور في كل شيء ليعطي الحياة كل شيء... إن الرؤية القرآنية لا يمكن أن تكون إلا حضارة كاملة... ومن المستحيل أن أنظر إلى القرآن النظرة الجزئية، التي تجعلني أعيش في جانب وأنسى الجانب الآخر، كما لا يمكن أن يتكون الدم من كريات حمراء فقط،

(1) إحياء علوم الدين: ج1 ص 398 للغزالي، دار المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط أولى 1424هـ.

أو بيضاء فقط، أو بعض العناصر المعدنية فقط التي تسير في الدم ولا يكون دماً إلا بها... إن النظرة الشاملة للقرآن هي النظرة الصحية للدراسات القرآنية، ولا يمكن الرضي بنظرة جزئية؛ لأنها عندما سارت في الفكر الإسلامي نشأ عنها ما يشبه الجسم المشلول في بعض أجزائه، أو في بعض أجهزته، مع بقاء أجهزة أخرى حية، إنه لا يستطيع أن يؤدي وظيفته ما دام الشلل أو الخطر يجمد بعض الأجهزة، أو بعض الأعضاء⁽¹⁾ ، فاجتزاء النص يؤدي إلى تشويه القضية الكاملة، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يقول عن اليد وحدها إنها إنسان، أو القدم وحدها إنها إنسان، فكذلك لا يستطيع أن يدرك الفهم الصحيح للقرآن الكريم إلا بالنظرة الكاملة، التي تتعدى التجزيء في الحكم، وتترقى من النظرة الموضوعية إلى النظرة الموضوعية.

من آثار النظرة الجزئية للقرآن الكريم

من هنا فإن النظرة الجزئية تكون آثارها وخيمة على الفكر الإسلامي، فهي تفيد من الآيات ما لا تدل عليه الآيات، وتنسب إلى القرآن أحكاماً ليست من أحكام القرآن، وما ذلك إلا لأنها نظرت نظرة موضوعية، ولم تطلق نظرها في الموضوع كله، فوقفت عند حد لا يكتمل به المراد، وذلك أوقع الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً في مسائل شائكة، بل أوقع بعضهم أحياناً في فهم تناقض تماماً مراد القرآن الكريم، خذ مثلاً فهم بعضهم لقوله - تعالى - : "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ"⁽²⁾ ، التي أخذ منها أن العمل مخلوق لله - تعالى - «ونسينا أن هذا

(1) كيف نتعامل مع القرآن، ص 71، محمد الغزالي، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط أولى 1412 هـ 1992م، بتصرف يسير.

(2) الصافات: 96.

الكلام لو صح ما كان عبدة الأصنام مسئولين؛ لأنهم إذا كانوا مخلوقين لله، وشركهم ووثنياتهم مخلوقة لله، فما عليهم من ذنب، لكن نحن أخذنا ظاهر الآية، وقطعناها من سياقها من قبل ومن بعد، وجعلناها هكذا دليلاً لرأي باطل..؛ إنها آفة التجزيء، وبعضهم بلغت به النظرة الجزئية أن يأخذ من صدر سورة براءة أن الإسلام دين هجوم، وإذا سألتهم عن الدليل يقولون: قوله - تعالى - : "وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً"⁽¹⁾ ويقف، من ثم لا يكمل الآية؛ لأن إكمال الآية "كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً"، فأنت هنا ترد الهجوم الشامل بدفاع شامل، وليس هناك ما يستدعي هذا، بل سميت آية السيف بذلك من المستثني قبل الاستثناء في قوله - تعالى - في السورة نفسها: "وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"⁽²⁾، وانتهى الأمر، وأخذ منها البراءة المطلقة، أما الاستثناء الذي جاء ووضح حدود البراءة، ومعناها، والمجال الذي لا يجوز أن نتعداه، وهو قوله - تعالى - : "إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ"⁽³⁾، نسيناها اعتبرنا المستثني منه أصلاً وأصبح القتال عاماً، بدون وعي للمعني نفسه، وما أوقع الناس في مثل هذا الفهم المشوه للآية الكريمة إلا النظرة الجزئية، التي أضاعت المعنى، وبترت الفهم، حتى أدى إلى غير المراد منه، وإذا نظرنا إلى آية أخرى في نفس السورة وهي قوله - تعالى - : "وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ

(1) التوبة: من الآية: 36.

(2) التوبة: 3.

(3) التوبة: 4.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ⁽¹⁾ وعرفنا أن ما ذكر قبلها من آيات "أمر عام في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص، ذكر - تعالى -: أن المصلحة إذا اقتضيت تغريب بعض جاز، بل وجب ذلك فقال: "وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ" طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضرر لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام "فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ"، ثم إن أسلم فذاك، وإلا فأبلغه مأمنه، أي: المحمل الذي يأمن فيه، والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون، فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأتمته أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله⁽²⁾ ؛ ذلك أن كمال إنسانية الإنسان أن يخلي نفسه، حتى يفكر فيما يصلحه ويفيده، من هنا أسقط الله التكليف عن المكره حال الإكراه؛ لأنه فقد عندئذ مؤهلاً من مؤهلات التكليف، ولم يعد أهلاً له..، من هنا نري أن (شمول النظرة أمر لا بد منه، لكي تعطي الأحكام الصحيحة من الناحية الفقهية التشريعية، فإذا أدركنا أن الإنسان مخلوق سوي، له سمع وبصر، وله فؤاد، ولا بد أن تستغل هذه الوظائف جميعاً في تصحيح إنسانيته، والعيش بها، أدركنا أنه لا يمكن أن يتم هذا الذي قاله القرآن الكريم في مكان آخر مع إباحة الإكراه، فكيف تكره أحداً؛ إنك بهذا تلغي إنسانيته، وما فائدة الحكم الشرعي إذا فقد الإنسان الذي يطبق الحكم الشرعي⁽³⁾ 'هذا وقد دعي القرآن الكريم المسلمين إلى أن يأخذوا الإسلام - والقرآن أول مصادره - كاملاً غير منقوص، ويدخلوا فيه كله، فقال - تعالى -: "يَا

(1) التوبة: 6.

(2) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي، ط: الرسالة، ط أولى 142هـ/ 200م، ص 329.

(3) كيف نتعامل مع القرآن: 73، 74، بتصرف يسير.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" (1), أي: ادخلوا جميعكم في الإسلام، أو ادخلوا في الإسلام جميعه، ولا تجتزئوه، كما فعلت الأمم السابقة، وقد رصد الله - تعالى - سببا من أسباب البوار والهلاك للأمم الماضية، بأنهم جعلوا القرآن عِصِينَ، فقال - تعالى - : "كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِصِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (2), أي جعلوه أجزاء أخذوا بعضه مما يوافق هواهم، وتركوا ما لا يروقهم ولا يقبلونه، ونعى - سبحانه وتعالى - عليهم مسلكهم هذا الذي يجتزئون به الوحي، فيأخذون بعضه ويتركون بعضه، فقال "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ" (3) .

وقال: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ" (4).

إن القرآن الكريم وحدة لا تتجزأ، وتعاليمه وأحكامه مترابطة متكاملة، بين بعضها وبعض ما يشبه الوحدة العضوية بين أعضاء الجسم الواحد، فبعضها يؤثر في بعض، ولا يجوز أن يفصل جزء أو أكثر عن سائر الأجزاء، فالعقيدة تغذي العبادة ، والعبادة تغذي الأخلاق، وكلها تغذي الجانب العملي والتشريعي في الحياة،

(1) البقرة: 208.

(2) الحجر: 9 - 93.

(3) الأنعام: 91.

(4) المائدة: 15.

(ولا يسوغ في منطق الإيمان ولا منطق العقل أن يقرأ المسلم قول الله - تعالى - في سورة البقرة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"⁽¹⁾ فيقول: سمعنا وأطعنا ولكن إذا قرأ في السورة نفسها قوله - تعالى - : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ"⁽²⁾ قال: سمعنا وعصينا؛ لأن الآية الأولى في مجال العبادات والأخرى في مجال العقوبات، ومعني هذا أن الإنسان أصبح معقباً لحكم الله - تعالى - يأخذ منه ويدع بهواه وحده، والله لا معقب لحكمه...، إن من فتح المصحف وقرأ سورة الفاتحة أو أوائل البقرة وجد أول ما يطالعه وصف المتقين المهتدين بكتاب الله بأنهم: "الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ"⁽³⁾. ففرق بين الجانب الاعتقادي: (الإيمان بالغيب)، والجانب الشعائري: (إقامة الصلاة)، والجانب الاقتصادي: (الإنفاق مما رزقه الله)، وهذا هو منهج القرآن الربط بين جوانب الحياة كلها برباط لا ينفصم؛ لأنها هكذا في واقع الحياة، وإذا كانت الحياة كلها مترابطة متلازمة فلا بد أن تكون الأحكام التي تشرع لها كلها مترابطة متلازمة كذلك، وذلك هو حكم الله، "وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ" (4) (5)

3- الوقوف عند حسن التلاوة وجمال الصوت

(1) البقرة: 183.

(2) البقرة: 178.

(3) الأنفال: 3.

(4) المائدة: 5.

(5) المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة: ص29، 33، د. يوسف القرضاوي، بتصرف واختيار.

والوقوف عند ترنيم الصوت وحده والعكوف على بهائه وروائه دون النظر في مرامي الآيات الكريمة من عقبات الفهم، وحجاب بين الإنسان وإدراك رؤية القرآن الكريم للأشياء، وإن آفة الأمة المسلمة - ونحن من أفرادها - أنها شغلت حيناً من الدهر - وما تزال تشغل - بجمال الصوت، وحسن الأداء، على حساب الفهم السليم، والإدراك القويم، وما تراه في واقع الناس، كلهم أو بعضهم، من وقوفهم عند حد الحروف والمطالع، والوقوف والفواصل، لعلامة مرض سرى ويسرى في الأوصال، لقد كان الصحابة وسلفنا الصالح يقف الفرد منهم عند الحدود و الحروف وقد يردد الآية مراراً، ويعيدها تكراراً، حتى تعمل في النفس عملها، وتؤدي دورها، كما تؤدي الأدوية الفاعلة في الأمراض المتوطنة - عملها، اجتثاثاً وإزالة وهدماً وبناءً، فتغيرت أحوالهم، وتبدلت أعرفهم على مراد القرآن الكريم، يؤكد ابن قدامة - رحمه الله - تجنب الإنسان لهذا المانع من موانع الفهم، وتلك العقبة التي تقف دون الوصول إلى مراد الله - تعالى - فيقول: (وليتخل التالي عن موانع الفهم، مثل أن يخيل إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف، ولا أخرجه من خرجه، فيصرف همته عن فهم المعنى)⁽¹⁾ وما تراه من واقع المسلمين، من الحرص على إقامة الحروف وعدم الوقوف على المعاني، ليس إلا صارفاً من صوارف الفهم، ومانعاً من موانع التدبر الحقيق، والإدراك العميق لمرامي القرآن الكريم. قد تسمع قارئاً يقرأ آيات العذاب والعقاب، وترى من يتمايل حوله طرباً، ولو فهم هذا السامع المعنى المقصود لبكى أو لتباكى، بدل أن يذهب مع حلاوة الصوت على حساب طلاوة المعنى، ولا شك أن القراءة الصحيحة القويمية أصحابه قولاً وعملاً طريقاً إلى الفهم الصحيح، وباب من أبوابه، وقد حث النبي على تجويد أصواتهم بالقرآن، فيسمع من أبي موسى قراءته ويقول: (لو رأيته وأنا

(1) مختصر مناهج القاصدين، ص 67، 68.

وأرضاه: لو أني أعلم يا رسول الله لحبرته لك تحبيراً⁽¹⁾، «أسمع قراءتك أنفا فيقول: إنني أحب أن pويطلب من أبي أن يقرأ عليه فيقول: «أقرأ عليك وعليك أنزل يقول إلى ذلك فيقول: «زينوا القرآن بأصواتكم»⁽³⁾، والقرآن pاسمعه من غيري»⁽²⁾، ويرشد الكريم نفسه قد حث على قراءة القرآن حق القراءة، وتلاوته حق تلاوته، فأثني علي الذين يتلونهم حق تلاوته وأعلى شأنهم فقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُؤَفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ»⁽⁴⁾، وكانت أول كلمة نزلت من القرآن الكريم هي: «اقْرَأْ»⁽⁵⁾؛ لأن القراءة هي مفتاح الفهم، وتجويد هذه القراءة معين من معيناته، وسبيل من سبله الموصلة إليه لكن الملاحظ أننا تمهرنا في قراءة القرآن ووقفنا عند حد الحروف والألفاظ، ولم نسبر أغوارها بالصورة المرادة، والغرض المقصود، فخلطنا بين الوسيلة والغاية، والأسباب والمقاصد، وكأن القراءة صارت هدفاً في ذاتها، وغاية في نفسها، حتى سرت إلينا علل الأمم السابقة وأمراضهم، يكون بين أيديهم الكتاب ولا يعلمون منه إلا أمانى، كما قال تعالى: «وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ»⁽⁶⁾ (يقول ابن تيمية رحمه الله عن ابن عباس وقتادة في قوله»

– البيهقي، في شعب الإيمان: ج 2 ص 525، وقال: أخرجاه في الصحيحين دون قول أبي موسى، وانظر¹

مسلم: ج 1 ص 546.

– صحيح مسلم: ج 1 ص 551، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند²

القراءة والتدبر برقم 801.

– صحيح البخاري: ج 6 ص 2742، برقم 4635، باب قول النبي: الماهر بالقرآن.³

(4) فاطر: 29.

(5) اقرأ: من الآية: 1.

(6) البقرة: 78.

"وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ" أي: غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظاً بلا فهم، لا يدرون ما فيها⁽¹⁾..، وقوله "إِلَّا أَمَانِي" أي: تلاوة لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يتلى عليهم». «والأمية العقلية هذه تسود الأمة في حال التقليد، والغياب الحضاري، والعجز عن تدبر القرآن والتعامل مع الأحداث، واتخاذ المواقف، واكتشاف سنن الله في الأنفس والأفاق، وحسن تسخيرها، ومعرفة كيفية التعامل معها، والنفاد من منطوق النص و ظاهره إلى مقصده وممراته، والتدخل حين نعلم السنة وأنها تتكرر ولا تتبدل فنستطيع توجيهها إلى حيث نريد ونفيد فنصل إلى مرحلة مغالبة القدر بقدر ، يقول ﷺ أحب إلى الله أو نفر من قدر الله إلى قدر الله كما قال عمر بن الخطاب ابن القيم رحمه الله: «ليس الرجل الذي يستسلم للقدر بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله». إنها الأمية العقلية التي نعيشها اليوم مع القرآن، والتي تعني ذهاب العلم على الرغم من تقدم فنون الطباعة، ووسائل النشر، وتقنيات التسجيل⁽²⁾ وهذه الأمية العقلية التي صارت حجاباً للفهم، وحاجزاً عن الوعي والإدراك لمضامين القرآن الكريم ليست وليدة عصر من العصور بل وليدة عدم الترتيب بين الغاية والوسيلة، فالقراءة التي هي وسيلة الفهم أصبحت في حد ذاتها هي الغاية والمبتغى، وصرنا إلا من رحم الله - مبلغ علمنا أن نجود الحروف، ونحقق صفاتها ومخارجها، فكان الاهتمام بالشكل على حساب المضمون، فقد يعيب الإنسان أي عيب إذا رقق المفخم، أو فخم المرقق، أو لحن جلياً أو خفياً، ولا يعاب إذا لم يدرك بدهيات القضايا في القرآن الكريم، أو المعاني الظاهرة المتبادرة لأن طريقة التعلم غرست فينا هذا الجانب ولا يقول أحد بأن جودة الأداء ليست غرضاً ولا هدفاً، لكن هناك فرق بين

- انظر مجموع الفتاوى: ج 17 ص 434¹

(2) كيف نتعامل مع القرآن: ص 14، 15. من تقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة.

غرض هو مقدمة لغيره، وبداية لسواه، وغرض هو المقصود الأسمى للقرآن الكريم، وقد ذكر ابن قدامة: أن المبالغة في أداء الحروف صارف من صوارف الفهم، ومانع من موانعه، بل تلبيس من تلبيس الشيطان بقوله: (وليتخل التالي عن موانع الفهم مثل أن يخيل له الشيطان أنه ما حقق تلاوة الحرف، ولا أخرجه من مخرجه، فيصرف همته عن فهم المعني) ⁽¹⁾ وقد وصف حمزة، وهو أحد أئمة القراء المعروفين القراءة بأنها كالبياض فإن زادت أصبحت برصاً، وإن قلت أصبحت سمرة ⁽²⁾؛ إن علاقة المسلمين بالقرآن علاقة تستوجب السؤال والدهشة، وتسترعي النظر، وتثير الانتباه، فالأمة التي نزل فيها (اقرأ) لا تكاد تقرأ، والأمة التي نزل بها (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) ⁽³⁾ لا تكاد تعرف عن الحديد شيئاً ذا بال وأمة (انظروا) لا تكاد تنتظر، وأمة: (قل سيروا في الأرض) لا تكاد تسير، وإن سارت فهو سير للمتعة الفانية والشهوات الداهية، (إنه من عدة قرون ودعوة القرآن مجمدة، ورسالة الإسلام كنهر جف مجراه، أو بريق فقد سناه، والأمة التي اجتباها الله تتعامل مع القرآن تعاملًا لا يجوز السكوت عليه، كان الجاهليون الأقدمون يصمون آذانهم عن سماعه، ويتواصلون بالشغب على مجالسه، ويعلنون بتكذيب صاحبه، حتى شكا صاحب الرسالة إلى ربه هذا الكنود: "وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا" ⁽⁴⁾ أما المسلمون المتأخرون فهم يسمعون، وقد يتأوهون أو يسكتون، ولكن العقول مخدرة، والحواس مبعثرة، ومسالك الأفراد والجماعات في واد آخر، وكأنها تنادي من بعيد، والأمة

(1) مختصر مناهج القاصدين: ص 67، 68.

- معرفة القراء الكبار، للإمام الذهبي، ص 69، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى 1417 هـ - 1997²

- الحديد: 25³.

(6) كيف نتعامل مع القرآن: ص 25، 26.

المنتمية إلى القرآن مجهولة مستوحشة، والحضارة التي يصنعها لا تجد من يصور معالمها بإتقان، ولا من يعبد طريقها بذكاء ولا من يفتح لها دكاناً صغيراً في سوق امتلاً بلافتات خداعة لسلع ما تساوي شيئاً، أو مذاهب باطلة- بالتعبير الصريح، هكذا يتصرف أصحاب الحقيقة مع الحقيقة التي شرفوا بها وانتموا إليها؟⁽¹⁾ إن هذا لمن البلاء المبين، الذي يجعل الحليم يحار، أمة لها موروث ثقافي، ومدد سماوي، كفيل بأن يتبوعوا بها سدة الدنيا ومقدمة العالم، يكون حالها أن تصير في عداد النائمين الغائبين، وليست الأزمة أزمة منهج، فالمنهج موجود والمصدر محفوظ، وذلك من فضل الله على المسلمين، ولكن الأزمة الحقيقية في التعامل والفهم، والوعي والإدراك.

وقد أخذ جانب الشكل اهتماماً أكثر من حجمه في فكر المسلمين وعقولهم، وامتد ذلك في فراغ المضمون، لقد فصلت الأمة بين القراءة والفهم، وأصبح المسلم يقرأ القرآن ليجد البركة، وكأن تدبر ألفاظه دون حس بمعانيها ووعي لمغازيها يفيد أو هو المقصود...، إن القرآن الكريم يصنع النفوس، ويصنع الأمم، ويبني الحضارات، هذه قدرته، وهذه طاقته، فأما أن يفتح المصباح فلا يري أحد النور؛ لأن الأبصار مغلقة، فالعيب عيب الأبصار التي أبت أن تنتفع بالنور، والله تعالى يقول "قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ"⁽²⁾ نحن ما اتبعنا رضوان الله ولا سبل السلام، ولا استطعنا أن نقدم سلاماً للعالم، ولا استطعنا أن ننقل هدايات القرآن للقارات الخمس، هناك في عصرنا خمسة مليارات من البشر

(2) المائدة: 16.

محجوبة عن أضواء القرآن، ولا تعرف عنه شيئاً والسبب أن المسلمين أنفسهم محجوبون عن أضواء القرآن، وفاقد الشيء لا يعطيه⁽¹⁾.

والخلاصة: أن القراءة مطلوبة وهامة، والتجويد وحسن الأداء ضروري ومؤثر، لكن يوضع كل ذلك في مكانه ومقامه، فلا يمتد على حساب الفهم، ولا نسرف في الوقوف عند الشكل على حساب المضمون، حتى لا تتحول وسائل الفهم إلى موانع، ومعيناته إلى صوارفه.

4- وضع النصوص في غير مواضعها:

ومن الأمور الصارفة للعقل عن الفهم والتدبر والتي تجعل بين العقل وفهم القرآن سدا منيعا أن توضع النصوص في غير موضعها، فيستدل بها على غير قضاياها، ويقدم بها لنتائج غير نتائجها، إما لعلة في نفسه أو خلل في تركيبه الفكري والثقافي، وعدم تهيئته بأدوات الفهم الصحيح والفكر السليم، فتجده مثلاً يستخدم النصوص في غير بيئتها الطبيعية، ومن أول من صنع ذلك الخوارج (حيث رفضوا ومن معه، ومعاوية ومن معه، وحجتهم التي تمبداً التحكيم في الخلاف بين علي أعلنوها وتمسكوا بها قول الله تعالى: "إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ"⁽²⁾، وعقب أمير المؤمنين علي- رضي الله عنه- على حجاجهم هذا بكلمته الحكيمة البليغة التي ذهبت مثلاً في التاريخ إذ قال: «كلمة حق يراد بها باطل»، فالكلمة في ذاتها حق؛ إذا لا حكم إلا لله، سواء فسرنا الحكم بالحكم الكوني، بمعنى أنه لا يدبر هذا الكون ولا يتصرف فيه إلا الله تعالى، أم فسرناه بالحكم الأمري التشريعي، بمعنى أن الأمر والناهي المشرع الذي له حق الطاعة المطلقة هو الله وحده، ولكن هذا المعني شيء والتحكيم في

(1) كيف نتعامل مع القرآن: ص 31.

(2) يوسف: 40.

المنازعات شيء آخر، فهذا أمر قد شرعه الله تعالى وحكم به، ودل عليه فهذا من جملة حكمه سبحانه وتعالى⁽¹⁾ ' ونجد أمثلة متعددة لهذا الفكر المعوج، الذي يأخذ نتيجة من غير مقدماتها، ويقدم مقدمات لغير نتائجها، كأن تسمع بعضهم يقول: (إن القرآن نفسه سوى بين المرأة والرجل في الميراث في قوله تعالى: "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا")⁽²⁾، وينسى أن هذا النصيب المفروض قد وضحه القرآن نفسه في السورة نفسها، وقد سمي القرآن الكريم هذا الفعل - وهو وضع النصوص في غير مواضعها تحريفا للكلم عن مواضعه، ونعى على أهل الكتاب هذا الصنع الشنيع، ووصفهم بأن الله - تعالى - أراد فتنتهم؛ لسوء فعلهم، وقبح صنيعهم، ولم يرد أن يطهر قلوبهم فقال: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاءَ غُورٍ لِلْكَذِبِ سَمَاءَ غُورٍ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتَوْكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"⁽³⁾

ومن سار في هذا الباب أتى بالعجائب من المعاني لم ينزل الله بها من سلطان يستدل بعضهم على منع تعدد الزوجات بقوله تعالى: "وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ"⁽⁴⁾ ويروج للسياسة العصرية بأن القرآن أثنى على السائحين والسائحات، كما في قوله تعالى في وصف المؤمنين الذين اشترى الله منهم

(1) المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة، ص 277، 278.

(2) النساء: 7.

(3) المائدة: 41.

(4) النساء: 129.

أنفسهم وأموالهم بأنهم لهم الجنة: "التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" (1) وقوله تعالى "عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا" (2) فهل يتصور هذا الجو العاطر الطهور أن يكون المراد بالسياحة ما نشهده في عصرنا من أفواج المنحليين والمنحلات، الذين تقذف بهم الطائرات من الجو، والبواخر من البحر، باحثين أو باحثات عن المتعة واللذة أينما وجدت ؟ « (3)

5- أن يكون همه آخر السورة..

وهذا مانع من موانع الفهم، وعقبة من عقبات الوصول إلى المعني المقصود؛ لأنه يكون أكبر شغله، ومبلغ علمه، وأعظم أمله، أن يختم أو يصل إلى آخر «أن الغاية من العبادة عامة الوصول إلى معناها، لا p السورة، وقد ورد عن النبي الوقوف عند شكلها، " رب صائم ليس من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر والتعب» (4) . وقد قال تعالى في بيان القراءة النافعة: "وَقُرْآنًا بَلَتْمِلْهُ فَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا" (5) وأمر رسوله والتحسين، والإجادة في إقامة الحروف والحدود، فقال: "وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا" (6)، والذي يوقع بعض القارئ في هذا المانع أن يأخذوا جانباً من جوانب الآيات والأحاديث التي

(1) التوبة: 112.

(2) التحريم: 5.

(3) المرجعية العليا في الإسلام للكتاب والسنة، ص 284.

(4) سنن ابن ماجه 596/1 برقم 571، وقال صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه

(5) الإسراء: 106.

(8) المزمل: 4.

تدل على فضل القراءة، دون أن يقرنوها بأخواتها مما يدل على فضل الفهم وأن يكون لهذه القراءة ثمرة من الإدراك والوعي، أو قد يكون ذلك من تلبس إبليس فقد ذكر ابن الجوزي (أنه قد لبس على قوم بكثرة التلاوة فهم يهزون هذًا من غير ترتيل ولا تثبت، وهذه حالة ليست محمودة، وقد روي جماعة من السلف أنهم كانوا يقرؤون القرآن في كل يوم، أو في كل ركعة، وهذا يكون نادراً منهم، ومن داوم عليه فإنه وإن كان جائزاً إلا أن الترتيل والتثبت أحب إلى العلماء) ⁽¹⁾ وليس أدل على ذلك من سيرة السلف الصالح وموقفهم مع القرآن الكريم من ترديد آيات يمرون بها لا يجاوزونها حتى يصلوا بها إلى معاني تشبع نفوسهم، وتروي غلتهم، ورأس الصالحين رسول الله يقف ليلة كاملة يردد قوله تعالى: "إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيْزُ الْحَكِيْمُ" ⁽²⁾ «وقد قام تميم الداري ليلة بهذه الآية "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" ⁽³⁾ ' وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية: "وَأَمَّا زُورُ الْيَوْمِ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ" ⁽⁴⁾، وقال بعضهم: إني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها، حتى يطلع الفجر، وكان بعضهم يقول: آية لا أتقهما ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثواباً،... وحكي عن أبي مسلم الداراني أنه قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أنني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها، وعن بعض السلف أنه يبقى في سورة ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها، وقال بعض العارفين: لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة

(1) انظر تلبس إبليس: ص 138.

(2) والحديث أخرجه ابن ماجه، 1/ 429، وقال الألباني: حسن، والآية: 118 من المائدة.

(3) الجاثية: 21.

(4) يس: 59.

منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد، وذلك بحسب درجاته وتعيشه⁽¹⁾ أما أن تكون القراءة مطلباً في ذاتها، وغاية في نفسها فلا؛ فعظم الأمر ليس على ترداد الحروف، وهذا القرآن هذا الشعر، وإنما ما وقر في القلب وقارنه العمل؛ من هنا كان حال السلف الصالح، من هنا أثرت التلاوة في سلوكهم، فتغيرت معارفهم، واستنضات سريرتهم، وصح علمهم وعملهم في الحياة، وهذه غاية القرآن الكريم.

6- مرض القلب أو عدم خضوعه

من أكثر الصوارف عن فهم القرآن الكريم والوصول إلى معانيه أن يكون القلب - وهو محل العقل والفهم والتدبر والوعي غائباً أو مريضاً؛ لأنه المزرعة التي بأن صلاح ينمو فيها الفهم، والبوتقة التي يكتمل بها العلم، وقد وصفه الرسول البدن بصلاحه، وفساده بفساده فقال في الحديث الصحيح: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله وهي إلا وهي القلب)⁽²⁾ وقد صور القرآن الكريم حال قوم سماعيين للوحي، معاشين للنبوة لكنهم غائبو القلب بقوله: "وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ"⁽³⁾ وقد تعهد تعالي بصرف مرضى القلوب عن فهم آياته، وتدبر كلماته فقال: "سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاً آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا

(1) إحياء علوم الدين، ج1، ص 395، 396.

(1) صحيح البخاري، من حديث النعمان بن بشير، باب من استبرأ ل عرضه ودينه، 28/1، ومسلم، باب أخذ الحلال وترك الحرام 3 / 1219..

(2) محمد: 16.

بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (1)

وصرف الله تعالى لهؤلاء المتكبرين عن فهم آيات القرآن الكريم وتدبر عطاءاته ليس ظلماً لهؤلاء، بل هم البادعون للبعد عن هدايات الله - تعالى - ، وقد وصفهم الله - تعالى - بأنهم إن رأوا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن رأوا سبيل الغي اتخذوه سبيلاً، وبأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا عنها غافلين، وأن ذلك ليس إلا جزاء لهم عما كانوا يعملون، وكذلك كل الآيات التي تناولت هذه الأوصاف، مثل الختم، والطبع، والأكنة، ونحو ذلك، تدلّك أنهم هم البادعون للإعراض عن هدايات السماء، وعطاءات القرآن الكريم، وقد ذكر الإمام الزركشي - رحمه الله - في برهانه أن القلب المريض لا يصل إلى فهم مراد الله - تعالى - من كلامه، فقال: «واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسرار، وفي قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حب الدنيا، أو هو مصر على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقق، أو يعتمد على مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضها أكثر من بعض» (2) ؛ فالبدعة عندما يسر بها القلب - عياداً بالله - تصد القلب عن الفهم، فيكون حائلاً بينه وبين الإدراك والمعاشية، بل قد يؤدي إلى غير وصفاً لهذا المراد؛ لأن ميزانه غير منضبط، وقياسه غير سليم، وقد حدد النبي القلب المعوج الذي تنكت فيه النكت السوداء، فتحول بينه وبين معرفة المعروف، «تعرض الفتن على القلوب كعرض وإنكار المنكر بالكوز المجخي، فيقول الحصير عوداً، عوداً فأیما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، وأیما قلب أشربها

(3)الأعراف: 146، 147.

(2) البرهان: ج 1 ص 181.

نكتت فيه نكتة سوداء، حتى تصير القلوب على قلبين: أبيض كأنما فيه سراج يزهر، وكالكوز مخبياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً⁽¹⁾؛ ولذلك حرص علماؤنا على بيان خطر مرض القلب في الفهم والإدراك، فقال ابن قدامة - وهو يعرض لهذا الأمر الجلل: (وليتخل عن موانع الفهم، ومن ذلك أن يكون مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوي مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصورة التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإمالة الشهوات مثل جلاء المرآة⁽²⁾)، وقد يكون القلب سليماً لكنه غائب عما يقرأ، لاه عما يتلو، فلا ينتفع بتلاوة، ولا يفيد من قراءة، ويستوي في ذلك مع مريض القلب في هذه الصفة، وقد قسم ابن القيم - رحمه الله - تعالى - القلوب، وذكر أن غياب القلب عما يعاين صارف من صوارف الفهم، فقال: (الناس ثلاثة رجل قلبه ميت، ورجل له قلب حي لكنه مشغول ليس بحاضر، فهذا له الذكرى، والثالث رجل حي القلب مستعد تلّيت عليه الآيات فأصغى بسمعه، وألقي السمع، وأحضر القلب، ولم يشغله بغير فهم ما يسمع، فهو شاهد القلب، فهذا هو الذي ينتفع بالآيات⁽³⁾) اشتغال القلب من موانع الفهم، فيحدث أيضاً عن المؤثر والمانع والشرط وقد عد في الفهم بقوله: (فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر⁽⁴⁾)، من هنا علينا أن نجزم بأن مرض القلب أو غيابه مانع من موانع الفهم، وصارف من

(1) صحيح مسلم: ج 1 ص 129 ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي .

(2) مختصر منهاج القاصدين، 67- 68.

(3) انظر مدارج السالكين: 1/ 442، بتصرف يسير، وانظر تدبر القرآن ص 50.

(4) الفوائد: ص 1.

صوارف إدراك المراد من كلام الله - تعالى -؛ لأن القلب هو محل الانتفاع، وقد نسب الله - تعالى - إليه الإدراك في آيات كثيرة من القرآن الكريم، فقال تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا"⁽¹⁾، وقال - تعالى -: "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ"⁽²⁾، وقال - تعالى -: "خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"⁽³⁾، ولكون القلب هو محل الانتفاع أو الإعراض عن هذا الانتفاع، نسب الله - تعالى - في القرآن الكريم أفعالاً متعددة، مثل: والإصغاء، والخشوع، والوجل، والطمأنينة، كما نسب إليها القسوة، والكسب، والمرض، والختم، والصرف، والانتفاع، واللهو، والزيغ، إلى غير هذه الأوصاف التي تحتاج إلى دراسة مفردة⁽⁴⁾

7- التورع الواهم:

بعض الناس لديهم فهم مغلوط، أو تدين مغشوش بتعبير بعض شيوخنا، يضع الأمور في غير مواضعها، ويزن الأشياء بغير موازينها، ومن ذلك بعدهم عن التدبر القرآني ظناً منهم أنهم ليسوا أهلاً للتدبر، ولا كفواً للتفكير، ويكتفون من ذلك بالقراءة المجردة، والوقوف عند تحصيل أجر الأداء، ناسين أو جاهلين أن دور القرآن الكريم في الحياة ليس تحصيل الثواب للآخرة فحسب، بل أيضاً لإعمار الكون وإحياء الحياة على اسم الله - تعالى -، وعلى ضوء من منهاجه وتشريع، وهذا الفهم المغلوط، أو النظر القاصر باب من أبواب تلبيس الشيطان على الإنسان، حتى قال ابن هبيرة -

(1) محمد: 24.

(2) الحج: من الآية 46

(3) البقرة: آية: 7.

(4) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط: دار الحديث، مادة (قلب).

رحمه الله- ومن مكاييد الشيطان تنفيره عباد الله من تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة حتى يقول الإنسان أنا لا أتكلم في القرآن تورعاً⁽¹⁾

وقد عد ابن القيم هذا التلبيس لوناً من ألوان الحرج، يخشى منه، فقال: (ومن قال إن له- أي القرآن- تأولاً لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج)⁽²⁾ ذلك لأن الهدف الأسمى من القرآن الكريم ليس فقط مجرد النظر في حروفه وصفاته، بل إقامة حدوده وتصوراته، حتى يعمر الإنسان الأرض على منهاج هذا الكتاب الكريم، الذي هو وسيلة الأحياء في الحياة، وليس فقط ذخّر الأموات بعد الحياة، ومن أروع ما يذكر في ذلك كلام فقيه المقاصد- الإمام الشاطبي- رحمه الله- عندما يوازن بين كونه معجزاً، وكونه مفهوماً معلوماً، إذ يقول- رحمه الله-: (فمن حيث كان القرآن معجزاً أفهم الفصحاء، وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله، فذلك لا يخرجهم عن كونه عربياً جاريماً على أساليب كلام العرب، ميسراً للفهم فيه عن الله مما أمر به ونهى، لكن بشرط الدربة في اللسان العربي، إذ لو خرج بالإعجاز عن إدراك العقول لمعانيه لكان خطابهم به من تكليف ما لا يطاق، وذلك مرفوع عن الأمة، وهذا من جملة الوجوه الإعجازية إذ من العجب إيراد كلام من جنس كلام البشر في اللسان والمعاني والأساليب، مفهوم معقول، ثم لا يقدر البشر على الإتيان بسورة مثله، وقد قال- تعالى-: "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ"⁽³⁾، وعلى أي وجه فرض إعجازه، فذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه

(1) وانظر تدبر القرآن: ص 52، نقلاً عن ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: 3/ 273.

(2) التبيان في أقسام القرآن: ص 144.

(3) القمر: 17.

ومعقل معانيه، "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" (1) فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم (2)، فكون القرآن معجزاً للفصحاء، ومسكناً للبلغاء، لا يعني ذلك أن يكون عسير الفهم، أو بعيد المنال، وإن كان للناس في فهمه وتدبره درجات، وقد يتيح الله تعالى لإنسان من المعاني ما لا يجده في كتاب ولا يحصله عند غيره من أهل التخصص والاستذكار، وكم رأينا في حياتنا المعيشة أفراداً لا يربطهم بالقرآن، إلا إمعان النظر، وجودة التفكير، وحسن المطالبة يأتون بمعاني لم يقف عليها علماء، أفذاذ ورواد مميزون، ولعل ذلك وجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم. وقد فند الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - صاحب أضواء البيان شبهة أن تدبر القرآن لا يكون إلا لمجتهد خاص، فذكر عند تعرضه لقوله - تعالى -: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (3) الآيات المماثلة لذلك في الدعوة إلى التدبر، والتفكير، وذم من أعرض عن التدبر والتفهم لآيات القرآن الكريم، وأكد على أن كل من لم يشتغل بتدبر هذا القرآن العظيم في آيات، أي: تصفحها، وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها فإنه يعرض عنها، غير متدبر لها فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات، إن كان ممن أعطاه الله فهماً يقدر به على التدبر، وقد إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن كما قال - تعالى -: "وَقَالَ الرَّسُولُ يَا مَعْشَرَ النَّبِيِّ رَبِّ إِنْ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا" (4)، وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن، وتفهمه، وتعلمه، والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين، وقد بين النبي في الصحيح من حديث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) المشتغلين بذلك هم خير الناس، كما ثبت عنه

(1) ص: 29.

(2) الموافقات: 3 / 185.

(3) محمد: 24.

(4) الفرقان: 30.

أنه قال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)⁽¹⁾ وقال تعالى "وَلَكِنْ كُونُوا عِفَانٍ كَثِيرٍ مِنْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ"⁽²⁾ 'فإعراض الأقطار عن النظر في كتاب الله، وتفهمه والعمل به، وبالسنة الثابتة من أعظم المناكر، وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى)⁽³⁾ , وذكر - رحمه الله - أن كلام بعض الأصوليين بأن تدبر القرآن، وتفهمه، والعمل به، لا يجوز إلا لمجتهدين خاصة.. قول لا سند له من دليل شرعي أصلاً، بل الحق الذي لا شك فيه أن كل من له القدرة من المسلمين على التعلم، والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمها، والعمل بها، أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به فممنوع شرعاً، وأما ما علمه منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح فله أن يعمل به، ولو آية واحدة، أو حديثاً واحداً، ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من لا يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس، ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، وليس أحد منهم مستكماً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهداه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين.....⁽⁴⁾ وفي ذلك بيان أي بيان عن أن التفهم والتدبر لا يقف عند حد العلماء والمجتهدين وإلا ما كانت توجيهات القرآن وحكاياته عامة موجهة إلى عموم الناس وإلا لما كانت توجيهات القرآن إلا لفئة مخصوصة من البشر

- صحيح البخاري: ج 4 ص 1919.¹

(2) آل عمران: 79.

(3) أضواء البيان: ج7 ص 257، 258 ، ط: دار الحديث القاهرة، ط 1426 هـ 2000م.

(4) السابق: 7 / 258.

8- الوقوف عند الأبنية الفكرية السابقة:

من صوارف الفهم عن المعني المراد في القرآن الكريم أن يعتقد الإنسان أن القوالب الفكرية السابقة هي نهاية المطاف، وليس في الإمكان أبدع مما كان، وهذا الفهم يقف بالقرآن الكريم عند عصر معين، وزمان محدد، والواقع أن عطاء القرآن الكريم لا يقف عند حد، ولا ينقطع عند سد، بل يمضي مضي الزمان والمكان، ويبقى ما بقي الليل والنهار.

"إن من أخطر الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم، فحالت بينه وبين التدبر وكسر الأقفال، ووضع الأغلال والآصار، والتحقق بالفكر القرآني والرؤية القرآنية الشاملة، والاعتراف منها لعلاج الحاضر، والامتداد صوب المستقبل، واعتماده مصدراً للمعرفة، والبعث الحضاري: التوهم بأن الأبنية الفكرية السابقة التي اتخذت من القرآن في العصور الأولى هي نهاية المطاف، وأن إدراك أبعاد النص مرتين بها في كل زمان ومكان، وما رافق ذلك من النهي عن القول في القرآن بالرأي، وجعل الرأي دائماً قرين الهوى، وسوء النية، وفساد القصد، وفي هذا ما فيه، من محاصرة للنص القرآني، وقصر فهمه على عصر معين، وعقل محكوم برؤية ذلك العصر، وحجر على العقل، وتخويف من التفكير، الأمر الذي يحول بين الإنسان والتدبر المطلوب إليه نص القرآن⁽¹⁾، ولا يشك إنسان بأن بالخيرية، إلا أن هذا ليس هو pخير الفهم فهوم الجيل الذي شهد له النبي نهاية الشوط، بل القرآن ومعانيه يتجدد ولا يتبدد، لا يغيض ماؤه ولا يكدر رواؤه وصفائه، ولكن يحتاج إلى من يحمل أدوات الفهم السليم، حتى يوظفه في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان.

(1) كيف نتعامل مع القرآن: ص 17، 18، من مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة.

وهذا الصارف من صوارف الفهم له بما قبله صهر ونسب، فإذا كان السابق يحول دون ارتفاق معاني القرآن الكريم، وسبر أغواره، والعيش في ظلاله، فإن هذا الصارف يجعل الناظر في القرآن الكريم يقف عند فهوم السابقين، دون محاولة تجديد هذه الفهوم بما جد من معطيات العصر، وتطور الزمان، وهؤلاء الأعلام السابقون، والأئمة الراسخون قالوا أهم ما في زمانهم، وأبرز ما أعطاه لهم وقتهم، ولو كانوا في زماننا ووقتنا لكان لهم مع هذا الكلام رأي آخر، يتناسب مع زماننا ووقتنا، ولا يعني ذلك القفز - كما يقولون على هذا التراث الضخم الذي هو وسيلة من وسائل الفهم، وإنما معناه هضم هذا الزخم العلمي والتراثي الزاخر، حتى نفيد من سناه، ونستضيء بضياه، ونمضي على دربه وطريقه، وقد كان الأستاذ أمين الخولي -رحمه الله- يقول: (أول التجديد قتل القديم بحثاً وفهماً)، وهي حكمة عاقلة رائدة؛ ذلك أن الفهم الحقيقي لا يمكنه أن يتجاوز الفهوم السابقة، بل ينطلق منها، ويبني عليها، أما إنكارها والتبرؤ منها، فهو قطع للجذور، وسد للمنابع، ورفض للأصول، وكما أن ذلك خطأ وخطيئة، فإن الوقوف عند هذه الأصول وحدها، دون الاستفادة منها قد يكون عائقاً من عوائق الفهم والفكر والتطبيق والعلم، (فإن الاختصار على منهج النقل والتلقي يحاصر الخطاب القرآني نفسه، ويقضي على امتداده، وقدرته على العطاء المتجدد للزمن، وإلغاء لبعده المكاني "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"⁽¹⁾، ولبعده الزماني "وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ"⁽²⁾، وإلغاء التكليف القرآني من السير في الأرض، والنظر في البواعث والعواقب، باستمرار النظر في الأنفس والآفاق، والاكتشاف الحسن للسنن والقوانين، والتعامل معها في ضوء العطاء العلمي⁽³⁾)، وقد

(1) سبأ: 28.

(2) الأحزاب: 40.

(3) كيف نتعامل مع القرآن: ص 17، 18، من مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة، بتصرف يسير.

يكون سبب ترسخ هذه القناعة الفكرية في عقول المسلمين ما مروا به في عصور الانحلال والاضمحلال، الذي شمل أبواب الفقه، والفكر، في عصور الضعف والهزيمة النفسية، حتى ينقل الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان عن أحد المفسرين قوله: (ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة، ولو وافق قول الصحابة، والحديث الصحيح، والآية، فالخارج عن المذاهب الأربعة ضال مضل، وربما أداه ذلك إلى الكفر؛ لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر) (1)!! فانظر كيف وصل الأمر بجيل من الناس أن يحصر الفهم القرآني في فترة محددة، وفهم محدد، مع أننا ما أمرنا بقصر فهم القرآن على جيل دون جيل، أو زمن دون زمن، بل طولبنا بأن نوظف الفهم السابق الذي عاشه السلف الصالح، والأئمة السابقون، بما ينفع ما نعيشه في حياتنا المعاصرة، (إن الدعوة إلى محاصرة العقل، والحجر عليه، وقصر الفهم والإدراك والتدبر على فهوم السابقين، هو الذي ساهم بقدر كبير في الانصراف عن تدبر القرآن، وأقام الحواجز النفسية المخيفة التي حالت دون النظر، وأبقى الأقفال على القلوب، وصار القرآن تتاغيم وتراتيل، وبدل أن يكون الميراث الثقافي وسيلة تسهل الفهم، وتغني الرؤية وتعين على التدبر، أصبح من بعض الوجوه عائقاً، يحول دون هذا كله، وشيئاً فشيئاً تتحول القدسية من القرآن إلى السنة، فنجعل السنة حاكمة على القرآن، ومن ثم انتقلت القدسية لفهوم البشر، وبقي الكتاب والسنة للتبرك) (2)!!، ولا يعني هذا أننا نريد أن نتجاوز هذا التراث الضخم، من الفهم الراسخ، والإدراك الراسي العميق، الذي توفر له من شواهد النزول، وصحيح المنقول، ما جعله خير الفهوم، كما يقول شيخ الإسلام في مقدمة أصول التفسير، إنما نريد أن نفيد منه،

(1) أضواء البيان: ج7 ص 262 نقلاً عن الصاوي، في الحاشية على الجالين

(2) كيف نتعامل مع القرآن: ص 19.

ونستضيء به، حتى نعبر إلى إعمار الأرض، وإصلاح الدنيا بالدين.

9- الاشتغال بالمبهمات

للقرآن الكريم منهج رائد في عرض قضاياها، وتصوير مراده من إبراز ما يحتاج إلى ظهور، وإغفال ما لا يترتب على تركه فائدة، ولو اتبعت هذا المنهج القرآني الذي سار عليه في عرض القصة مثلاً سنجد أنه لا يذكر المكان، ولا الزمان، ولا الملامح الشخصية، كاملة إلا إذا ترتب على ذلك فائدة، كما أنه لا يقف عند الأسماء والأعداد، وفي ذلك ما فيه من فوائد، كإثارة الذهن، ويقتضيه، وعدم تقديم الكم المعرفي كاملاً؛ لينشط إلى تتبعه، واحترام هذا العقل البشري، فلا يذكر له إلا ما يعنيه، ويفيده، ويجعله عقلاً يحلل ويعلل، ويستنبط، ويكون لديه تلك المهارة والقدرة على الاستنتاج والفهم، وفي ذلك دعوة عملية للعقل المسلم أن يكون في تفكيره وعلمه على نفس هذا المنهاج القرآني العزيز، من هنا ضرب القرآن الكريم الذكر صفحاً عن أشياء لا تفيد العقل المسلم، فإذا أغرق العقل نفسه في هذا المبهمات، وتكبد المنهاج القرآني في التعامل مع القرآن نفسه، وضع بذلك أمام نفسه صارفاً من صوارف فهم القرآن، وهو الاشتغال بالمبهمات، والجري وراء معرفتها، وفي ذلك ما فيه من صرف همة العبد عن الأهم إلى غير المهم، ومن المراد إلى غير المراد.

10- عدم استصحاب قواعد التفسير:

لاشك أن علم قواعد التفسير، والعلم بمفردات علوم القرآن باب عظيم النفع في معرفته مراد الله - تعالي - من كلامه، قدر الطاقة البشرية، وكل باب من هذه الأبواب له ظلال خاصة، وإضافة مفيدة في فهم القرآن، فكيف يصل إلى الفهم مثلاً من لم يعرف الفرق بين المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، أو أسباب النزول، أو معهود العرب في خطابهم وثقافتهم الفكرية والاجتماعية، ومفردات حياتهم، وقد مر بنا شيء

من هذه المفردات, عرفنا أهميتها وفائدتها في إيضاح المعنى, وبيان المراد, ولا يقل أهمية عن ذلك إدراك قواعد التفسير تلك التي تعد خلاصات, قدمها رواد هذا العلم, من خلال استقراءهم لآيات القرآن الكريم, وخرجوا بها ليفيد بها المشتغلون بهذا العلم خاصة, والقارئون والسامعون لهذا الدستور بصفة عامة.

وترك هذه القواعد وعدم تطبيقها, أو الجهل بها وشيء من مفردات علوم القرآن يجعل فهم الإنسان للنص القرآني فهماً قاصراً, وإدراكه له إدراكاً باهتاً.

المبحث الرابع معاني الفهم

أما معينات الفهم، والوصول إلى معرفة معاني القرآن الكريم، بقدر الطاقة البشرية فهي متعددة منها ما يلي:

1- المعاشية:

ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، ومن حرام انحرف،

لا يدرك الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها⁽¹⁾

إن استصحاب القرآن الكريم في القلب والعقل، والتحاكم إليه في صغير الأمر وكبيره باب عظيم النفع من أبواب الإفادة من معاني القرآن الكريم، وهو علامة على حياة القلب، ويقظته، واستعداده للنفع، كالبلدة الآمنة التي (يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، أو كمثل جنة بربوة، أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها وابل فطل)⁽²⁾، يقول ابن القيم - رحمه الله -: (من الناس من يكون حي القلب، واعيه، تام الفطرة، فإذا فكر بقلبه، وجال بفكره، دله قلبه وعقله على صحة القرآن، وأنه حق، وشهد قلبه بما أمر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: "وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ"⁽³⁾)

- انظر المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير: ج1 ص 157، ط¹ المكتبة العصرية .

- البقرة: 265.²

(3) سبأ: 6.

وقوله: "ثُورٌ عَلَى نُورٍ"⁽¹⁾ , فهذا نور الفطرة على نور الوحي, وهذا صاحب القلب الحي الواعي, يجمع بين قلبه الواعي وبين معاني القرآن, فيجدها كأنها قد كتبت فيه, فهو يقرأها عن ظهر قلب, ومن الناس من يكون تام الاستعداد, واعي القلب, كامل الحياة, فيحتاج إلى شاهد يميز بين الحق والباطل, ولم تبلغ حياة قلبه ونوره, وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي, فطريق وصول هذا يتة أن يفرغ سمعه للكلام, وقلبه للتأمل والتفكر فيه, وتعقل معانيه, فيتعلم حينئذ أنه الحق⁽²⁾, إن معاشة الإنسان للقرآن الكريم تفتح له مغاليق الفهم, وتيسر له سبل الوصول إلى مراد الله - تعالي -, وكم من فقهاء ومفسرين عاشوا في ظلال القرآن الكريم في أتون المحن, فأثمرت تلك المعاشة والمخالطة مالا يتيسر لغيرهم في بحبوحة الحياة, وذلك ما كان يذكره ابن القيم من حال شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إذ يقول سمعته غير مرة يقول: (ما يصنع أعدائي بي, إن حبسوني فحبسي خلوة, وإن نفوني فنفي سياحة, وإن قتلوني فقتلي شهادة في سبيل الله, أنا في صدري كتاب الله وسنة نبيه)⁽³⁾, وكم من علماء عاشوا محاور القرآن الكريم وهم في محنة من المحن, فكانت فيوضات وعطاءات دونها عطاء الكتاب والقرطاس, من هنا تعين على المسلم أن يعايش القرآن الكريم معاشة تبرز له معانيه, ويختلط بروحه, وعقله, وفهمه, ووعيه, حتى يصل من الخير إلى ما يريد, إن المعاشة تعين على استحضار الصورة التي يتناولها القرآن الكريم, فيرى أهل

(1) النور: من الآية 35.

(2) انظر الفوائد: ص 10, 11, بتصرف يسير, ط: مكتبة نزار مصطفى الباز, ط الثانية, 1425هـ / 2004 م.

- الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب: ص 73, 74, لابن القيم, ط: دار الكتاب, بيروت لبنان, ط³

أولى, 1425هـ, 2004 م.

الجنان منعمين، وأهل النار معذبين موقوفين؛ لذلك كان أصحاب النبي
أعظم الناس حظاً في فهم القرآن الكريم، والانتفاع به، وذلك كما يقول شيخ
الإسلام في مقدمته: (لما شاهدوه من القرائن والأحوال، التي اختصوا بها
فحصل لهم الفهم التام، والعلم الصحيح) ⁽¹⁾، إن الذي يعايش القرآن الكريم
في حله وترحاله، ويطوي معه الزمن، في ليله ونهاره، فيسير في عمق الزمان
مضياً واستقبلاً، ستفتح له كنوز من المعرفة لا يدركها إلا من ذاقها وخبرها،
وعندئذ ستتحول حياته إلى حركة وعمل، وعطاء وبذل؛ لأنها ستضأ بمفاهيم
القرآن، التي تشبعت بها، وتزن بموازين القرآن، فلا تقدم إلا ما قدمه الله في
كتابه، ولا تؤخر إلا ما أخره الله في كتابه، ولا يفهم النصوص القرآنية حق
الفهم إلا من عاش العيش الحقيقي مع القرآن الكريم، ليترك نفسه تسبح مع
المسبحين، وتستغفر مع المستغفرين، وتذكر مع الذاكرين، وليطلق لها عنان
الرؤية، حتى تعايش أصحاب النعيم في نعيمهم، وترى مصارع الغابرين في
مهالكهم، وترى إنجاء الله - تعالى - لأصحاب الداعوت والرسالات، على
تداول الأعصار والأمصار، وكم كان سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم -
يحيون هذه الحياة القرآنية، وكم مر بنا من موقف لهم، يقف الواحد منهم ليلة
كاملة مع آية يعايشها ويحققها في نفسه، يقول الإمام النووي - رحمه الله -:
(ويستحب له إذا مر بآية رحمة يسأل الله - تعالى - من فضله، وإذا مر بآية
عذاب أن يستعيز بالله من الشر ومن العذاب، ويقول: اللهم إني أسألك
العافية، أو أسألك المعافاة من كل مكروه، ونحو ذلك، وإذا مر بآية تنزيه لله -
تعالى - نزه فقال: - سبحانه وتعالى، أو تبارك وتعالى، أو جلّت عظمة ربنا، فقد

(1) مقدمة في أصول التفسير: ص 140، ط: دار المؤيد، ط أولي 1423 هـ 2002 م.

ذات ليلة، فافتتح البقرة، فمضى ρ قال: صليت مع النبي ﷺ صح عن حذيفة فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ ترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ⁽¹⁾ ومن صور المعاشية والتجاوب في آيات الله تعالى التي يقرأها ويتجاوب (صلى وسلم عليه، وإذا مر ρ معها أنه إذا مر بآية فيها صلاة على النبي) بآية فيها سؤال يعلمه أجاب كقوله تعالى "أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى" ⁽²⁾ قال بلى قادر وقد روي عن ابن عباس وابن الزبير وأبي موسى الأشعري رضي الله عن الجميع - أنهم إذا قرأ أحدهم "سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ" كان يقول فيها سبحان ربي (τ) **الأعلى** ⁽³⁾ قال سبحان ربي الأعلى وعن عمر (الأعلى ثلاث مرات ⁽⁴⁾ ولا يصل الإنسان إلى هذه الصورة إلا بمعاينة ما يقرأ ومعايشة ما يتلو، حتى يصير ما يقرأه حياً أمامه، سواء كان ذلك في عالم الغيب أم في عالم الشهادة، وهذا ما عبر عنه حجة الإسلام الإمام الغزالي بمنزلة التأثير ووصفه بقوله: (وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة، بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد، يتصف به قلبه، من الحزن، والخوف، والرجاء، وغيره.... فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد وتقيد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته، كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر، كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر الله،

(1) التبيان في آداب حملة القرآن: ص 58، والحديث رواه مسلم، ج 1، ص 536، برقم 772، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل 58.

(2) القيامة: 40.

(3) الأعلى: 1.

(4) التبيان: ص 79.

وصفاته، وأسمائه يطأطأ خضوعاً لجلاله، واستشعاراً لعظمته، وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله - عز وجل - كذاهم الله - عز وجل - ولداً وصاحبة يخفض صوته، ويكسر في باطنه حياءً؛ لقبح مقالته، وعند وصف الجنة - ينبعث بباطنه؛ شوقاً إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً :

(اقرأ على قال: فافتحت سورة ط لابن مسعود p منها، ولما قال رسول الله النساء، فلما بلغت "فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا" (1) ، رأيت عينيه تذرفان بالدمع، فقال لي: حسبك الآن) (2) ، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية، ولقد كان في الخائفين من له أحوال في سماع الآيات فمثل هذه الأحوال تخرجه عن أن يكون حاكياً في كلامه، فإذا قال "إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ" (3)، ولم يكن خائفاً كان حاكياً، وإذا قال: "عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" (4) ، ولم يكن حال التوكل والإنابة، كان حاكياً، وإذا قال "وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا" (5) ، فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه، حتى يجد حلاوة التلاوة؛ فإن لم يكن بهذه الصفات، ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان (6) ' وضرب الإمام مثلاً لمن يقرأ القرآن ولا يعايشه بقلبه، ولا يحياه بحسه وروحه، بالذي يقرأ كتاب مليكه، الذي يأمره بإعمار مملكته، وهو ممعن

(1) النساء: 41.

(2) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، ج 4، ص 192 من حديث عبد الله بن مسعود، ط: دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط الثانية، ت/ مصطفى البغا.

(3) يونس: 15.

(4) الممتحنة: 4.

(5) إبراهيم: 12.

(6) الإحياء: 400 / 1، 401.

في تخريبها، ومدمن لقراءة الكتاب، وكأن الإمام بذلك يعاين أحوال عموم المسلمين، إلا من رحمه الله، فيقول: (ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره، مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات، وقد كتب إليه في إعمار مملكته، وهو مشغول في تخريبها، ومقتصر على دراسة كتابه، فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء، واستحقاق المقت، وصور معايشة الجيل الأول وعنايتهم بهذه المخالطة بينهم وبين القرآن الكريم بقوله: (p في الأحوال والأعمال، فمات رسول الله (ﷺ) لقد كان شغل الصحابة عن عشرين ألفاً من الصحابة، لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة، اختلف في اثنين منهم، وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين، وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم، ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله - عز وجل - "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"⁽¹⁾ قال يكفي هذا): «انصرف الرجل وهو فقيه»⁽²⁾، إنما العزيز مثل تلك p وانصرف فقال (الحالة التي من الله - عز وجل - بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية، فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى⁽³⁾)

إن المراد من المعايشة أن يصل القارئ والسامع إلى درجة التواصل الحقيقي مع القرآن الكريم، فيحس بإحساسه، ويشعر بشعوره، وينظر إلى مقاصده وغاياته، ويدنو إلى أهدافه ومتطلباته، ساعتها تكون رسالة القرآن في الحياة قد وصلت إلى الأحياء، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. (ومن يعايش القرآن هذه المعايشة، ويقبل

(1) الزلزلة: 7، 8.

(2) الحديث ذكره ابن حبان في صحيحه، ج 3 ص 50 بلفظ مقارب .

(3) انظر الإحياء 1: 402 بتصرف واختيار.

عليه هذا الإقبال تنفتح النصوص عن رصيدها المذخور، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة، وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور، إلى قوى وطاقات، وتتنبض الأحداث والوقائع المصورة فيها تنتفض خلائق حية موحية دافعة تعمل في واقع الحياة وتدفع بها إلى حركة حقيقية في عالم الواقع، وفي عالم الضمير، وإن الإنسان ليقراً النص القرآني مئات المرات، ثم يقف الموقف أو يواجه الحادث فإذا النص القرآني جديد، يوحى إليه بما لم يوح من قبل قط، ويجيب على السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخفي، ويرسم الاتجاه القاصد، ويمضي بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه، وإلى الاطمئنان العميق، وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث⁽¹⁾

2- حضور القلب:

فكيف يفتح القرآن كنوزه لقلب غافل غير يقظان، أولاه مشغول عن عطاءه وفيضه، إن القلب إذا حضر عند سماع القرآن، أو تلاوته وقراءته، فتحت أمامه مغاليق الفهم، وتبدد لديه كسف الظلام، فإذا بنور القرآن يسرى في عقله، وقلبه، وروحه، ودمه، فيجعله إنساناً آخر، إنساناً قرآنياً، يتحرك بالقرآن شغله ومحياه، ومصعبه وممساه، تتماسك أمامه القيم، ولا تتفقت بين يديه المعايير، وقد كان حال السلف الصالح مع القرآن حالاً يحتاج منا إلى وقفة، فقد كانوا وقافين عند كلام الله، حضور قلب، ويقظة فؤاد، وقد ذكر في قوله - تعالى - : "يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ"⁽²⁾ : (أن المراد: بجد واجتهاد، وأن أخذه بالجد أن يكون مجرداً له عند قراءته، منصرف الهمّة إليه عن غيره، وقد قيل لبعضهم : إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء؟ فقال:

(1) في ظلال القرآن: ج5 ص 2886

(2) مريم: من الآية 12.

أو شيء أحب إلى من القرآن حتى أحدث به نفسي؟، وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، وهذه الصفة تتولد عن صفة التعظيم لكلام الله- تعالى-؛ فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به، ويستأنس، ولا يغفل عنه، وفي القرآن ما يستأنس به القلب، إن كان التالي أهلاً له، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنته عنه، والذي يتفرج في المتنتهات لا يفكر في غيرها، فقد قيل: إن في القرآن ميادين، وبساتين، ومقاصير، وعرائس، وديابيح، ورياضاً، وخانات، فإذا دخل القارئ الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديابيح، وتنتزه في الرياض، وسكن غرف الخانات، استغرقه ذلك، وشغل عما سواه، فلم يعزب قلبه، ولم يتفرق فكره⁽¹⁾. وهو توصيف راق من حجة الإسلام لحضور القلب ويقظته، وعدم مبالاته بما سوى القرآن أو الاعتناء بما عداه.

3- المدارس:

وهي صورة من صور الرغبة في تفهم القرآن الكريم، والوقوف على حروفه ، ورغب و وحدوده، واستتباط حكمه وأسراره، وقيمه ومعانيه، وهذا ما حث عليه النبي فيه بقوله: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسون فيما بينهم إلا غشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده)⁽²⁾، والمدارس لون من ألوان اختزال الفكر، واستدعاء المعاني والاجتماع على مائدة قرآنية واحدة، يقطف منها أصحاب ثقافات متعددة، يأخذون منها ما تطيب به يتدارسون القرآن، ويعيشون نفوسهم، وتصح به عقولهم، وقد كان أصحاب النبي

(1) انظر إحياء علوم الدين: ج 1 ص 394,395، ط: بيروت ط أولى 1424هـ/ 2004م.

(2) الحديث خرجه مسلم في صحيحه: ج 4 ص 2699، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي.

حوله بل به، وما أسئلة عمر الفاروق لأصحابه عن معنى (التخوف)⁽¹⁾ ومفاد سورة النصر⁽²⁾ وغيرها منا ببعيد، فهذه المدارس تعين على توقد الذهن، وحضور العقل، وتكامل الفكر، حتى يفيد المتدارسون للقرآن أكبر فائدة، فقد قال ابن عباس (الدراسة تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها)⁽³⁾ ونقل (صلاة)، وقال ابن مسعود عن ابن القيم قوله: (ملاقة الرجال تلقيح لألبابها فالمذاكرة بها لقاح العقل)⁽⁴⁾.

(يدارس أصحابه فهذه أمانة عائشة رضي الله عنها تدارس وقد كان النبي)
(وتسأله فعن ابن أبي مليكة أن عائشة رضي الله عنها كانت لا تسمع شيئاً من النبي)
(قال: (من حوسب عذب) فقالت لا تفهمه إلا راجعت فيه حتى تفهمه وأن النبي)
عائشة رضي الله عنها فقلت أليس يقول الله -تعالى- "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ *
: «إنما ذلك العرض وليس أحد من فسوف يحاسب حساباً يسيراً»⁽⁵⁾ فقال رسول الله)
يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب).⁽⁶⁾

يقول ابن حجر في الفتح: (وفي الحديث ما كان عند عائشة من الحرص
(لم يكن يتضجر من مراجعة العلم وفيه جواز على تفهم معاني الحديث وأن النبي)
المناظرة ومقابلة السنة بالكتاب- وقد وقع ذلك لغير عائشة).⁽⁷⁾

(- انظر الجامع لأحكام القرآن: ج1 ص 99. ¹

- انظر صحيح البخاري: ج3 ص 1327، وتفسير القرآن العظيم لعماد الدين ابن كثير: ج4 ص 728. ²

(3) جامع البيان العلم وفضله: 1/ 22 وانظر تدبر القرآن: ص 144.

(4) مفتاح دار السعادة: ص 217.

(5) الانشقاق: 7، 8.

(6) صحيح البخاري: ج1 ص 51، باب من سمع شيئاً وراجع فيه، من حديث ابن أبي مليكة .

- انظر فتح الباري: ج1 ص 197، ط: دار المعرفة بيروت، 1379. ⁷

4- صدق الطلب

ولاشك أن صدق القلب والإخلاص والإلحاح في طلب الفهم طريق موصل إلى المراد فإنهم قالوا من أكثر من الطرق أوشك أن يفتح له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (من تدبر القرآن طالباً الهدى فيه تبين له طريق الحق)⁽¹⁾، ولم لا القرآن لا يرضى بأن يكون له من الناس فضل الأوقات، ولا فضل العزمات، وإنما يرضى بأن تعطيه كلك حتى يكشف لك عن بعض كنوزه وعطاياه، ومن صدق الطلب إدانة النظر فيه، والتفكر في كلماته ومراميه.

5- سلامة التلاوة والترسل فيها والترتيب بين أجزائها:

إن سلامة التلاوة طريق إلى سلامة الفهم، وإتقان الأداء باب موصل إلى التدبر والتفكر، والترسل في القرآن بترتيل وترتيب معين من معنيات الفهم، ولأمر ما (بالقرآن في كل عام مرة، فلما كان العام الذي توفي p) يعارض النبي (ص) كان جبريل (ع) عارضه بالقرآن مرتين⁽²⁾ ولذلك قال السيوطي في إتقانه: (إن التحقيق يكون p فيه) للرياضة والتعلم والتمرين، والترتيل يكون للتدبر والتفكر والاستنباط⁽³⁾، ولاشك أن الترسل في القراءة والترسل بها يعين على فهم القضية المترابطة، والمعني الواحد، الذي لا يكتمل إلا باكتمال جزئياته، وقد استحَب العلماء الترتيل؛ لأنه معين على الفهم كما ذكر حجة الإسلام ذلك في إحيائه وهو يعدد آداب القراءة، فيقول: (الخامس أي: من آدابها الترتيل وهو مستحب في هيئة القرآن؛ لأن المقصود من

(1) انظر مجموع الفتاوى: ج 3 ص 137.

- انظر صحيح مسلم: ج 4 ص 1904.²

(3) الإتقان: 1/ 100، ط: المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

القراءة التفكير والترتيل معين عليه ولذلك نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول (: لأن أقرأ τ) فإذا هي تتعت قراءة مفسرة حرفاً، حرفاً⁽¹⁾، وقال ابن عباس (p الله) إذا زلزلت والقارة أتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً⁽²⁾، وسئل مجاهد عن رجلين دخلا في الصلاة وكان قيامهما واحداً إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله قال هما في الأجر سواء⁽³⁾ ⁽⁴⁾ ' كما أن القراءة بترتيب معين أيضاً على الفهم والتدبر وذلك للترابط الموضوعي الذي هو لون من ألوان الإعجاز القرآني فإن كل آية مع أختها تمثل ربطاً بديعاً ورصفاً محكماً يضيع جماله بتقطيعه وكل آية مع أختها لحمة واحدة تمهد السابقة لللاحقة وتؤكد اللاحقة على السابقة في تناغم واتساق وكذلك ترتيب السور بعضها بعد بعض لحكمة وغاية حتى قال الإمام النووي رحمه الله (الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ثم ما بعدها على الترتيب وسواء قرأ في الصلاة أو في غيرها.. ويستحب إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها ودليل هذا ترتيب المصحف إنما جعل هذا لحكمة ينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشروع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة يقرأ في الأولى سورة السجدة وفي الثانية سورة الإنسان ونحو ذلك)⁽⁵⁾ .

- انظر المجتبى من السنن : ج2 ص 181، لأحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط الثانية 1406، 1986م، ت/ عبد الفتاح أبي غدة ، مذيلة بأحكام الشيخ الألباني، وذكر الشيخ فيه أنه ضعيف .

- انظر المصنف في الأحاديث والآثار: لأبي بكر عبد الله بن أبي شيبه، ط: مكتبة الرشد، الرياض ، ط أولى² 1409 هـ، ت/ محمد كمال يوسف، ج 2 ص 256.

- انظر فتح الباري: ج 9 ص 89.³

(4) إحياء علوم الدين ص 388.

(5) التبيان في آداب حملة القرآن: ص 62، 63.

(على منهاجه - صلوات الله وسلامه عليه - وهذا وقد سار أصحاب النبي)
(على نهيك ٢ في الترسل والترتيب في القراءة والترتيب كذلك، حتى أنكر ابن مسعود)
بن سنان سرعته في القراءة حين قال: قرأت المفصل البارحة فقال عبد الله: هذا كهذا
الشعر.. (1)

وخلاصة القول أن الترسل في القراءة والتمهل فيها يؤدي إلى ضبط معانيها،
وإدراك أهدافها، والترتيب فيها يؤدي إلى ترابط أهدافها، وظهور مقاصدها، واتضح
معانيها، واكتمال فكرتها في ذهن القارئ والسماع؛ من هنا كان الترسل والترتيب في
القراءة معيناً من معانيات الفهم.

6- استظهار القرآن وإدامة النظر فيه:

وهذا أيضاً من الأبواب التي تمهد للفهم وتعين عليه؛ فإن استظهار القرآن
واستحضاره يجعل العقل أقدر على تفهم قضاياها، والربط بين محاوره ولعل لمحة من
لمحات الإضاءة، أو إلماعة من إلماعات التوفيق ساعة مراجعة أو استذكار رأي لا
تكون إلا كصيد الخاطر، أو طير سارح، يحتاج إلى ربط وتقيد، فهذا الكتاب لا
تنتهي عجائبه، ولا تبلى جدته، ومن الأمور المجربة أن المرء يكون قد تلا الآية أكثر
من مرة ويتلوها من جديد فيبتين له معني ما كان قد وقف عليه من قبل..؛ إن
الاتصال الدائم بالقرآن: تلاوة، وترتيلاً، ودراسة، وحفظاً، من الأمور التي لا بد للمفسر
من أن ينصب بها، وحفظ العالم للقرآن والاتصال الدائم به يعينه في تفسيره القرآن
بالقرآن، ولا تسد المعاجم الموجودة مسد الحفظ أبداً.. (وتلاوة القرآن بترتيل وتدبر
بصورة دائمة توقف المفسر على كنوز لا حصر لها، فقد ينقدح في نفس القارئ مرة

(1) رواه مسلم : ج 1 ص 635، باب ترتيل القراءة، برقم 822.

من المعاني في تفسير آية ما لم يكن يخطر باله من قبل، وربما يكون المعنى الذي وقف إليه لم يتناوله أحد من قبل⁽¹⁾؛ إن إمعان النظر في هذا الكتاب الكريم يكشف فيه كل يوم عن كل جديد وسيظل معطاءً زاخراً ما توالي الجديان، وتتابع الحدثان، فكل عصر من العصور يضيف إلى فهم السابقين فهماً جديداً، وكل لمسة من مفسر تضيف جديداً، وتقيد حميداً، من هذا الكنز الذي لا يذهب رواؤه، والمعين الذي لا ينضب ماؤه، وهي معجزة من معجزات الله - تعالى - للبشر على مر الأيام، وتتابع السنين.

7- صلاة الليل:

قيام الليل بالقرآن من أقوى الطرق الموصلة إلى فهمه ومعرفته، ولم لا؟ والليل باب الخشوع والخضوع، فيه يستأنس المحبون بمحبتهم، ويستوحشون من زحمة الدنيا في نهارهم، حتى ما يجدون راحة أنس، ولا حلاوة مناجاة، إلا في تلكم الأوقات التي لا أنيس فيها ولا جليس، ولا رقيب ولا حسيب، إلا علام الغيوب - سبحانه وتعالى - فيفرون من زحمة الدنيا، وصخب الحياة، وضجيج الناس، وتهارشهم على الحياة، ومتعها، وزخارفها، إلى هدأة الليل وسكونه؛ فإنه للصوت أسمع، وللقلب أخشع، وللعين أدمع، وإلى ستر العيوب عن الخلق أقرب، ولأمر ما كان قيام الليل في حق (والجماعة المؤمنة الأولى فرضاً، حتى نزل التخفيف عن الأمة، وبقي في النبي (فرضاً إلى أن مات، ولك أن تعيش قوله - تعالى -: "يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ * مَحَقَّ النَّبِيُّ) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً" (2) ، (فإن

(1) بحوث في أصول التفسير، ص31، ط المكتب الإسلامي، ط أولى 1408 هـ 1988م

(2) المزمّل: 1-6.

مغالبة هتاف النوم، وهتاف وجاذبية الفراش، بعد كد النهار، أشد وطئاً، وأجهد للبدن، ولكنه إعلان لسيطرة الروح، واستجابة لدعوة الله- تعالى- وإيثار للأنس به، ومن ثم فإنها أقوم قليلاً؛ لأن للذكر فيها حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافيته، وإنها لتسكب في القلب أنسا، وراحة، وشفافية، ونورا، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره، والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه، وما يوقع عليه وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً، واستعداداً، وتهيئاً؟، وأي الأسباب أعلق به، وأشد تأثيراً فيه؟، والله- تعالى- وهو يعد عبده ورسوله محمداً- صلى الله عليه وسلم- لتلقي القول الثقيل، وينهض بالعبء الجسيم، اختار له قيام الليل؛ لأن ناشئة الليل هي أشد وطئاً، وأقوم قليلاً، ولأن له في النهار مشاغله ونشاطه، الذي قوله- تعالى-: «يَسْتَغْرِقُ كَثِيرًا مِنْ الطَّاقَةِ وَالْإِنْفَاقِ»⁽¹⁾، وقد قال ابن عباس "وَأَقْوَمُ قِيلًا" قال: هو أجدر أن يفهمه القرآن، ويقول ابن حجر- رحمه الله- عن (في كل ليلة من رمضان: المقصود من التلاوة الحضور والفهم؛ مدارسة النبي) لأن الليل مظنة ذلك، لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية⁽²⁾، وهناك من الشواهد ما يدل على اقتران قراءة القرآن بالليل فمنها قوله تعالى: "يَتْلُونَ (من نام عن حربه فقرأ فيما بين صلاة الفجر آيات الله آناء الليل"⁽³⁾)، وقوله وصلاة الظهر كتب كأنما قرأه من الليل⁽⁴⁾

8- التحلي بأخلاق القرآن قولاً وعملاً:

الظلال: ج 6 ص 3745 و 3746¹

- فتح الباري: 9- 45²

(3) آل عمران: 113.

(4) رواه مسلم، من حديث عمر بن الخطاب: ج 1 ص 515، برقم 747.

والتحلي بأخلاق القرآن، والتطبع بصفاته التي أرشد إليها، باب من أبواب التفاعل مع هذا الكتاب الكريم، الذي لا يفتح كنوزه - بحق إلا لمن عاشه، وعاشه معاشة فعلية، لا معاشة ثقافية، ولا فكرية فحسب، فكم رأينا من ومضات وتذوقات لأفراد بضاعتهم في علوم القرآن وأصوله ليست كبيرة، ولكن طباعهم وأخلاقهم مصدرها القرآن، ومراجعها هذا الدستور الإلهي الكريم وهذا ما عاشه بحق سلفنا الصالح حياة حقيقية، (فالمرء لا يستطيع بمجرد فهم ألفاظ القرآن وإدراك معاني جملة فقط أن يصل إلى إدراك التفاعل النفسي الذي ينطوي عليه رجال السلف الصالح، عندما تعاملوا مع هذا الكتاب.. هناك أشواق، وتذوقات وإشراقات، ومضات، ونفحات، وفتوحات، لا يتوصل إليها المرء بمعرفة الألفاظ والمعاني، بل لابد له من أن يعيش نفسه في نور تلك التذوقات والمضات، ولن يكون ذلك إلا بالإيمان العميق لم يكن أحدهم pالنامي، والعمل الصالح والخلق الحسن..)⁽¹⁾، (إن أصحاب النبي يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها، هو وجماعته. يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندي في الميدان الأمر اليوم، ليعمل به فور تلقيه، ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة؛ لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه... وهذا الشعور شعور التنفيذ كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من الانتفاع، وآفاقاً من المعرفة، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع، وكان يبسر لهم العمل، ويخفف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم ويحوله في

(4) بحوث في أصول التفسير: 34، 35.

نفوسهم وفي حياتهم إلى نهج واقعي، وإلى ثقافة متحركة، لا تبقى داخل الأذهان، ولا في بطون الصحائف، إنما يتحول أثراً وأحداثاً، تحول خط سير الحياة. إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح، روح المعرفة المنشئة للعمل، إنه لم يجئ ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ، وإن كان هذا كله من محتوياته إنما جاء ليكون منهاج حياة، منهاجاً خالصاً، وكان الله- سبحانه- يأخذهم بهذا المنهج مفرقاً يتلو بعضه بعضاً⁽¹⁾، وهذا التطبيق العملي الصادق، والطلب الجاد في تنفيذ تعاليم القرآن في الحياة هو ما جعل الجيل الأول من أكثر الناس فهماً لهذا الدين، حتى تجاوزوا معه وقت الرائد من أصحاب النبي نزوله، فتلفظوا بألفاظه، وألهموا أحكامه، وتوقعوا توجيهه وإرشاداته، وما موقف عمر وإلهاماته منا ببعيد، ليس ذلك فراسة عمرية فحسب، ولا حدساً عربياً ذكياً فقط، لكن أيضاً شعور خالطه توجيهات القرآن فكانت أوامره ونواهيه مصباحهم وممساهم، يتفكرون فيها في خلواتهم ويستذكرونها في جلواتهم، وكم مرة يخطر ببالي أن هذا الجيل الرائد كان أنموذجاً طبق عليه ربنا- عز وجل- ما ينبغي أن يتحلى به الجيل الذي يعمر الحياة، وينير الأرض، ويوقظ خيرها بمنهاج الله- عز وجل-، فمن أراد أن يفهم كما فهموا، فليعيش كما عاشوا، وليعمل بما عملوا، فهذه هي الجادة فأين السالكون؟؟.

(1) انظر معالم في الطريق: ص 17 و 18 ط دار الشروق ط العاشرة 1403 هـ 1983 م للشيخ الأستاذ سيد قطب.

الخاتمة

أسأل الله حسنها

وبعد فهذه رحلة ضرورية حول فهم القرآن الكريم، بين القواعد التي تضبط العقل من الزيغ والهوى، وتعصمه من الوقوع في مهاوي الفكر ومحظورات التفسير، وبين المزالق التي إن عرفها المفسر والقارئ ليجنبها نجا من شرك التفسيرات الخاطئة، والمخطئة، وقد دارت هذه الدراسة المبسطة حول عدد من القواعد، وركزت على ضرورة الفهم الصحيح للقرآن الذي هو الدستور الخالد للأمة، وخلصها، وسر نجاتها وعزتها، وهذا الفهم لا يقل أهمية عن عناية المسلمين بالشكل والأداء، بل إن الشكل والأداء خطوة إلى الفهم والإدراك، كما أكدت الدراسة على أن واقع المسلمين المر الذي يعيشونه سبب من أسبابه ضعف صلتهم بهذا الكتاب الكريم، الذي أخرج أمة من العدم، وأعزها بعد ذل ووحدتها بعد فرقة وشتات، ولا يقصد بذلك ضعف صلتهم به من ناحية حفظه واستظهاره، أو إتقانه وأدائه، فهذا جانب قد أخذ حظه الغامر، ونصيبه الوافر، ولكن يقصد ناحية الوصول إلى الفهم السليم، والإدراك القويم لمرامي هذا الكتاب الخالد.

ثم عرضت الدراسة لبعض العقبات التي تعرقل عملية الفهم السليم، وتناولت بعض المعينات، التي تجعل الإنسان أقدر على فهم القرآن، والتواصل معه، وكلي أمل أن يلتفت الناس عامة، والمسلمون خاصة إلى عقد صلة وثقى، وعروة كبرى بينهم وبين القرآن حتى يسودوا الدنيا، ويقودوا العباد إلى طريق الله عز وجل.

توصيات البحث:

هناك بعض التوصيات التي خرج بها البحث بعد هذه التطوافة السريعة حول

هذا الموضوع من أهمها:

📁-عناية القائمين على دور التحفيظ بجانب الفهم كما عنوا بجانب التلقين والتحفيظ, فإن الحفاظ على نصوص القرآن ليست غرضا لذاتها, خاصة وقد ضمن الله بقاءه.

📄- أن يعنى القائمون على مناهج الجامعات والمختصون في مناهج الدراسات القرآنية بجانب الفهم القرآني في برامجهم وخطتهم.

📄- أن يعنى العلماء والكاتبون بالجوانب التي تيسر الفهم القرآني وتعين عليه, ولقد يسر الله القرآن للذكر فلنقدمه للناس غضا سهلا كما أراد الله.

📄-العناية بالتفاسير التي تعين على تبسيط المعنى ونشرها بين المسلمين ما دامت تمضي على منهاج أهل السنة.

📄- وضع برامج إذاعية وتلفازية وفضائية تعنى بتيسير الفهم لعامة المسلمين.

⌚-العناية بتكوين جيل رائد يربى على أيدي العلماء العاملين يتشرب منهم الفهم الصحيح للقرآن وينشر هذا الفهم في الناس بشتى الوسائل.

والله من وراء القصد,

رمضان خميس الغريب

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً:

الإتقان في علوم القرآن, لجلال الدين السيوطي, ط: المكتبة الثقافية,

بيروت لبنان بدون.

إحياء علوم الدين, للغزالي, ط: المكتبة العصرية, صيدا بيروت 1424هـ

2004م.

أسباب النزول للواحدي, ط: دار الكتب العلمية, ط أولى 1402هـ

أضواء البيان للشنقيطي, ط: دار الحديث القاهرة, ط 1426هـ 2000م.

بحوث في أصول التفسير, د. محمد لطفي الصباغ, ط: المكتب الإسلامي,

ط الأولى 1408هـ 1988,

البرهان في علوم القرآن, للإمام الزركشي, ط: دار المعرفة بيروت لبنان, ط

أولى 1990, 1410م/ت/ د. يوسف المرعشلي وآخرين.

البيان والتبيين, لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ, ط: دار صعب, بيروت,

ط أولى 1968م/ت/ فوزي عطوي.

تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط أولى، 1407هـ.

التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي، ط: دار القاسم، ط أولى 1420 هـ.

التحرير والتنوير، الأستاذ الإمام محمد الطاهر بن عاشور، ط: دار سحنون بيروت، بدون.

تدبر القرآن، د سليمان السنيدي ط: المنتدى بمكة ، ط الثانية 1423هـ/ 2002م،.

تفسير المنار، للشيخ رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م .

تفسير الصنعاني، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، ط مكتبة الرشد، الرياض، ط أولى، 1410 هـ ، ت/ مصطفى مسلم.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ط: مؤسسة الرسالة، ط أولى، 1420 هـ/ 200م

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، ط: دار الفكر بيروت 1405 هـ .

الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط: دار إحياء التراث العربي، 1966.

دراسات في علوم القرآن، لأستاذنا المرحوم د. محمد بكر إسماعيل طيب الله ثراه، ط: دار المنار، ط أولى، 1411 هـ/ 1991م.

روح المعاني, في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني, لمحمود الألوسي, ط:
دار إحياء التراث العربي, بيروت, بدون.

سنن النسائي لأحمد بن شعيب النسائي, ط: مكتبة المطبوعات الإسلامية,
حلب, ط الثانية 1406 هـ 1986 م, ت/ عبد الفتاح أبي غدة, مذيعة بأحكام
الألباني عليها.

صحيح البخاري, للإمام محمد بن إسماعيل البخاري, ط: دار ابن كثير
بيروت لبنان 1407 هـ 1987 م, ط الثانية, ت/ مصطفى البغا.

صحيح مسلم, مسلم بن الحجاج القشيري, ط: دار إحياء التراث العربي, ت/
محمد فؤاد عبد الباقي.

العجاب في بيان الأسباب, للإمام أحمد بن علي بن حجر, ط: دار ابن
الجوزي, الدمام, ط أولى 1997 م, ت/ محمد عبد الحليم محمد الأنيس.

فتح الباري بشرح صحيح البخاري, للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني,
ط: دار المعرفة, بيروت 1379 هـ.

الفوائد لابن القيم, ط: مكتبة مصطفى الباز, ط الثانية, 1425 هـ 2004 م.

في ظلال القرآن, للأستاذ الشيخ سيد قطب, ط: الشروق, ط الشرعية التاسعة,
1400 هـ / 1980 م.

قرى الضيف, لعبد الله بن أبي الدنيا, ط: أضواء السلف, الرياض, ط
أولى 1997 م, ت/ عبد الله بن حمد المنصور.

الكشاف, للإمام الزمخشري, ط: دار المعرفة, بيروت, لبنان, بدون.

كيف نتعامل مع القرآن, لأستاذنا الشيخ محمد الغزالي, ط: المعهد العالمي
للفكر الإسلامي, ط أولى, 1412هـ / 1992م .

لباب النقول في أسباب النزول, للسيوطي, ط: دار المعرفة, بيروت, لبنان, ط
الثالثة, 1407هـ / 2987م, بهامش تفسير الجلالين

مباحث في علوم القرآن, د. صبحي الصالح, ط, دار العلم للملايين, ط
الرابعة, 2000م.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر, لأبي الفتح ضياء الدين نصر بن
محمد الموصلي, ط: المكتبة العصرية, بيروت 1995.

مجموع فتاوى ابن تيمية, لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم الحراني, ط: دار
الفكر, 1400هـ / 1980م.

مختصر مناهج القاصدين, لابن قدامة المقدسي.

مدارج السالكين, لابن القيم, ط: دار الجيل, بدون.

مدخل لدراسة القرآن الكريم, د. محمد محمد أبي شهبه, ط: دار الجيل 1412هـ
1992

المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة, للدكتور يوسف القرضاوي,
ط: مؤسسة الرسالة, ط أولى 1414هـ / 1993م.

المصنف في الأحاديث والآثار, لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة
الكوفي, ط: مكتبة الرشد, الرياض, ط أولى 1409هـ , ت/ كمال يوسف
الحوت.

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم, للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي, ط: دار الحديث.

معرفة القراء الكبار, للإمام الذهبي, ط دار الكتب العلمية ط أولى 1417هـ.
مفاتيح الغيب للإمام الرازي, ط: دار الفكر, هـ /
م.

مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة, لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي, ط: دار الكتب العلمية, بدون.

مقدمة في أصول التفسير, لشيخ الإسلام ابن تيمية, بتحقيق إبراهيم بن محمد, ط: دار المؤيد, ط أولى, 1423 . 2002م.

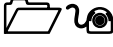
مناهل العرفان, للأستاذ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني, ط: الحلبي, بدون.
الموافقات للإمام الشاطبي

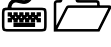
الوابل الصيب, لابن القيم, ط: دار الكتاب , بيروت لبنان, ط أولى 1425هـ.
2004م.

الوقف والابتداء وصلتهما بالمعني في القرآن الكريم, رسالة ماجستير, لزميلنا الدكتور عبد الكريم إبراهيم عوض صالح, بدون.

فهرس الموضوعات

	المقدمة
---	---------------

	المبحث الأول الفهم القرآني فريضة ربانية وضرورة حياتية
	المبحث الثاني قواعد الفهم
	القاعدة الأولى معرفة أسباب النزول
	القاعدة الثانية معرفة بيئة النزول
	القاعدة الثالثة معرفة الناسخ والمنسوخ
	القاعدة الرابعة معرفة المحكم والمتشابه
	القاعدة الخامسة معرفة الوقف والابتداء
	القاعدة السادسة معرفة عادات العرب وأخبارهم
	القاعدة السابعة معرفة علم أحوال البشر
	القاعدة الثامنة معرفة معهود الخطاب القرآني
	القاعدة التاسعة معرفة قواعد اللغة العربية
	القاعدة العاشرة معرفة موضوع القرآن الكريم ومقاصده الأساسية
	القاعدة الحادية عشر فهم حقائق الألفاظ المفردة
	المبحث الثالث عقبات في طريق الفهم

	- عدم التدبر والميل إلى نزعة أو مذهب
	- النظرة الجزئية
	- الوقوف عند حسن التلاوة وبهاء الصوت
	- وضع النصوص في غير مواضعها
	- أن يكون همة آخر السورة
	- مرض القلب أو عدم خضوعه
	- التورع الواهم
	- الوقوف عند الأبنية الفكرية السابقة
	- الاشتغال بالمبهات
	- عدم استصحاب قواعد التفسير
	المبحث: الرابع معينات الفهم
	- المعاشة
	- حضور القلب
	- المدارس

📖📄	📄-صدق الطلب
📖📄	📄-سلامة التلاوة والترسل فيها والترتيب بين أجزائها
📖🕒	🕒-استظهار القرآن وإدامة النظر فيه
📖🕒	🕒- صلاة الليل
📖📁	📁- التحلي بأخلاق القرآن قولاً وعملاً
📖📄	الخاتمة
📖📄	فهرس المصادر والمراجع
📖📖	فهرس الموضوعات